من روائع الشعر الصوفى

دراسة بلاغية نقدية لشعر الوطنية عند

الإمام محمد ماضى أبو العزائم

الدكتورة

عزيزة عبد الفتاح الصيفى

أستاذ البلاغة والنقد المساعد

كلية الدراسات الإسلامية والعربية

جامعة الأزهر – فرع البنات بالقاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

تقـــــديم :

الحمد لله والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحله أجمعين ، وبعد .

اعتمد الصوفية فى كتاباتهم على التعبير بالشعر ، حتى إن هناك من آثر نظم الشعر على الكتابة النثرية كابن عربى ، الذى ترك لنا تراثاً شعرياً عظيم الفائدة ، وهناك من جمع بين الكتابة النثرية والشعرية كابن الفارض والحلاج قديماً وأبو العزائم فى العصر الحديث .

جاءت أشعارهم سجلاً حافلاً بالآراء المذهبية والفلسفية، عبروا فيهـــا عن مشاعرهم ومواجيدهم فى وحدة الشهود عبر أمواج الحب الإلهى .

والمصطلح الصوفى لديهم يضم ألفاظ القـــرب والبعـــد والـــصبابة والعشق والجوى والشوق والوصل والصد ، وحينمـــا يـــذكرون مجـــالس الشرب والخمر ، فهى رموز عن مطالعة القلب جمال الصفات فى عـــالم الملكوت .

ومهمة هذا البحث هى إلقاء الضوء على نموذج للـــشعر الـــصوفى بحياد تام بعيداً عن تعصب الصوفية أو تسامحهم مع أنفسهم ، وبعيداً عـــن تعصب الفلاسفة والمتكلمين والفقهاء فى مناهجهم ضد التصوف الإيجابى أو السلبى ، وبعيداً عن تعصب المستشرقين لأدبائهم أو جهلهم أو تجاهلهم لروح المنهج الإسلامى ، ثم دراسة البناء التركيبى لهذا النموذج فى شعر إمام من أئمة التصوف فى العصر الحديث ألا وهو الإمام المجدد محمد أبو العزائم .

وقد تعرض البحث بالتحليل البلاغى لجانب من جوانب شعر الإمـــام وهو الشعر الوطنى فإن ديوانه يحوى نماذج لا حصر لها من المنظومات التى تدل على وطنيته ورغبته الملحة فى الإصلاح وأمنياته المستمرة لرؤية المسلمين فى أحسن حال وقد دحروا الطغاة والمستعمرين وأقاموا صـــرح نهضة تتواصل مع ماضيهم العظيم وقد جاء البحث فى مقدمـــة وتمهيـــد وفصلين ، فالفصل الأول أفرد للتحليل البلاغى لنماذج مختارة من شـــعر الوطنية ، أما الفصل الثانى فيتناول السمات البلاغية لهـــذا الـــشعر ، ثـــم الخاتمة والمصادر والمراجع وأخيراً فهرس الموضاعات .

والدراسة قد ركزت على الفنون والأساليب البلاغية فى شعر الوطنية ولم تتعرض لشرح وتوضيح المصطلحات الصوفية إلا إذا تطلب الأمـــر ذلك لتوضيح معنى بلاغى ، لأن المصطلح الصوفى فى الـــديوان يحتـــاج لدراسة مستقلة .

وإذا كان البحث قد لمس غرضاً من أغراض الإمام الـــشعرية فـــإن شعر الوطنية من أهم تلك الأغراض التى تناولها، فالوطنية عنده تنقسم إلى:

١ – **وطنية الإسلام** إذ يعتبره وطنه التى تربى على نهجه وطريقـــه المستقيم .

٢ – **وطنية الانتماء إلى الأرض** التى ولد فيها ونشأ هـــو وأجـــداده على ترابها .

وقد عاش الإمام يدافع عن وطنه الإسلام ووطنه الأرض والمكـــان فصدق ما عاهد الله عليه ... لذا أرجو أن تأتى هذه الدراسة عملاً مرضياً لإظهار جانب من وطنية هذا الثائر الشجاع .

تمهيـــد :

إن الصوفى فى هجرته الصوفية إلى الله يمر بأطوار متعاقبة من ألوان الجمال الإلهى المتجلى أحياناً فى صور الأفعال ، وحيناً فى مظاهر الصفات ، وتارة فى عين الذات ، لذلك يجب دراسة شعره حسب مراحله التطورية ، وذلك يحتاج إلى دراسات مستقلة .

ولا يجب أن نخلط بين الشاعر الزاهد[1] والشاعر المتصوف ، فإن ثم فرق بينهما كبير .

فالزاهد : هو الناحية العملية التى يحياها الناسك القانت فى مظهره الخارجى من تقشف فى المأكل ، والمشرب والملبس ، والانقطاع إلى الله ، وفى مظهره الداخلى من خشية وورع وتقوى وذكر الله كشعر أبى العلاء المعرى فى بعض مراحله .

أما التصوف : فهو تصفية النفس ومجاهدتها ورياضتها ، والانتقال بها من حال إلى حال ، أو الوجد ، أو الغناء . عندها يحاول الصوفى القادر على النظم والكتابة ، أن يسجل نظرياته الفلسفية وقت صحوه وتفسير ما وجده حال سكره .

فالتصوف المتطور عن الزهد مذهب مختلف ، عن التصوف الفلسفى الذى ينقسم إلى تصوف إيجابى ، وآخر سلبى .

أما التصوف الإيجابى: فهو ما اعتمد صاحبه على الكتاب والسنة، وكان منسجماً مع الروح الإسلامى .

---

(١) انظر تاريخ التصوف فى الإسلام : د. قاسم غنى من ١٣ : ٤٣ (بتصرف) ، م. النهضة المصرية ١٩٧٠ . والتفكير فريضة إسلامية للعقاد ١١٢ : ١٢٥ ، م. العصرية – بيروت – صيدا .

التصوف السلبى هو ما انحرف صاحبه عن الهدى الإسلامى ، فى حالات من الوجد وذهول للعقل وجنون تام يتصـــور فيه المجـــذوب مـــن فرط قربه لربه أنه هو الله .

والرافض للتراث الصوفى شعراً ونثراً كمن يدفن أروع ما كتب فى رياضة النفس وتصفيتها وتنقيتها من عوالق المادية ، وطمس لكل ما قيـــل فى التوحيد الإلهى .

والشعر سبيل المتصوف العارف يبث فيه لواعج نفـــسه وخلجـــات روحه ، فيصبح الشاعر الرمزى بالمعنى المذهبى حين يتوخى نظاماً عقلياً مذهبياً ، وآراء منتظمة ، وفرق كبير فى اعتقادى بين الكتابـــة الرمزيـــة والأدب الرمزى .

فالكتابة الرمزية : هى استعمال الرمزية الدينية والتاريخية فـــى الكتابة الصريحة ، أو الملموحة .

لكن الأدب الرمزى : على أكمل صوره هو التصوير المعبر عن خلجات النفس الخفية الهامسة ، وعن خبايا المعانى الدقيقة ذات الـــصور المتعددة والمتناسقة .

وفى محاولة للتعرف على واحد من هـــؤلاء الـــشعراء المتـــصوفة توصلنا إلى شاعر فى عصر النهضة المصرية فى أواخر القرن التاســـع عشر استطاع أن يجمع بين الشعر المذهبى التـــصوفى الفلـــسفى ، وبـــين معالجة قضايا مجتمعه وعالمه المعاصر له واستطاع ببراعة العارف بالله أن يعبر عن آرائه السياسية والوطنية ، فإن الصوفى المجدد الإمام الـــسيد محمد ماضى أبو العزائم ، هو رجل متعدد المواهب أغدق المولى عليه من

أنعمه الكثير ، درس وتعلم حتى صار داعية إسلامى من الطراز العـــالى ومتصوف إيجابى يرتكز على كتاب الله وسنة رسوله ، ومصلح اجتماعى، وثائر وطنى ، ومحارب سياسى ، كل ذلك سنتعرف عليه من خلال حديثنا عن شعره ، ومذهبه فى شعره .

إن النجاح فى الدعوة عند رجل الدين يقوم فى الأساس على نجاحـــه فى الجمع بين الدين والدنيا ، والمفكرون فى عصر النهضة فى مصر هم من حاولوا التجديد والإصلاح فى شئون الفرد والمجتمع ديناً ودنيا ، فماذا يكون الحال إذا كان الداعية متصوفاً أيضاً ؟ فإنها النقائض اجتمعت وتآلفت وانسجمت لِتُكَوِّن المسلم السوى .

فالإمام المجدد أبو العزائم رضوان الله عليه ، كانت حياته كلها نشاط وحركة وفدائية ووطنية ، كتب مؤلفاته المختلفة فى الدين والدنيا ، ونـــشر مقالاته التى تدعو إلى الإصلاح والتجديد والحث على العمل والتعاون فى بناء الوطن .

ويؤكد هذا ما حكى عنه ، أنه حينما قام " طلعت حـــرب " (١) رائـــد الاقتصاد فى مصر – فى العشرينات من القرن العشرين – وتقدم بمشروع إنشاء بنك مصر ، نشطت دار أبو العزائم للطباعة ، وصـــدرت مجلاتـــه تزف البشرى إلى الشعب العربى والإسلامى ، فكان يحمل على كل مـــن يحاول انتقاد هذا العمل الضخم ، وانطلق يساند الفكـــرة ، ويعتبـــر هـــذا المشروع بعث من جديد للمصريين وبشير يقظتها .

---

(١) راجع الإمام محمد ماضى أبو العزائم ٢١٣ وما بعدها (بتصرف) بقلم عبد المنعم محمد شقرف ، دار الطاعة الحديثة .

وكان طلعت حرب يراجع الإمام فى كل خطواته حتى أتم استكمال المشروع ، طالباً منه التأييد الروحى والدعاء الخالص .

عجبت كل العجب لمن استغرقوا فى الحديث عن زعماء الإصلاح ولم يذكروا الإمام أبا العزائم فنراهم ينقلون عن بعضهم البعض الرأى القائل بأن الإمام محمد عبده والسيد جمال الدين الأفغانى وعبد الرحمن الكواكبى، يمثلون المثلث الثقافى فى مصر بلا منازع ، ونسوا وتغافلوا هذا الإمام المجدد . وقل ذكر الإمام باعتباره رجل إصلاح فى الدين والدنيا معاً .

فإن عرض آراء " الإمام أبو العزائم " الإصلاحية يحتاج إلى بحث مستقل ومقام آخر ، فنحن بصدد الحديث عن ناحية خاصة من أدب الإمام ألا وهو الشعر، وفى رأيه " إن الأدب والفنون وسيلة ملائمة لرقى الأمم، حيث يرتقى بإحساس الشعوب " (١) .

" فالمسرح والتمثيل والرسم والنحت والتصوير ، وسائل لارتقاء الحس وسموه ، ومع أن الفن فى زمنه لم يكن إلا ترفيهاً منكراً من علماء الدين ، فقد رأى الإمام أن الأدب هو معرفة النفس وحقائقها ومراتبها فى الوجود ، حتى ينزل الإنسان كل شئ منزلته بما فيها نفسه ، فهو لا يقر الفن الذى يخاطب الحس فينبه كوامن الغرائز ، ويستثير مكنون الشهوات ، وإنما يعترف بالفن الذى يخاطب الحس ، ليكشفه ، وليبين وظيفته السامية ، وما طرأ عليها من صدأ الشهوات والغرائز البهيمية ، فيجعله يفسح الطريق إلى الرقى ، فيتصل بالنفس الملكية ، وبالروح القدسية " (٢) .

وشعر الإمام أبو العزائم كنز لم يكتشف بعد ، وثروة مخبوءة متمثلة فى اللغة الراقية والمعانى السامية ، والقارئ لدواوينه التى حوت عشرات

---

(١) الإمام محمد ماضى أبو العزائم ٧٧ .

(٢) المرجع السابق ٧٧ وما بعدها (بتصرف) .

الألوف من منظوماته الشعرية يلحظ أنه يقول عن علم كشفى لدنى ، وقـد يقول عن اجتهاد برأى ، فهى مواجيد شعرية وإلهامات عرفانية .

كان للإمام جلساته الدائمة مع خاصة من تلامذته ومريديه ، يملـى عليهم فى هذه الخلوات ، مضنون الحكمة ومكنون الأسرار القرآنية ، فقد تناول الإمام أبو العزائم غوامض أسرار الكون ومشكلاته ، وهو فى ذلك كله لم يتصنع الشعر كما فعل غيره من شعراء ، فشعره لا ينبغى أن يقرأ ويفهم بطريقة قراءة وفهم الشعر المتداول ، وإنمـا هـو شـعر خاضـع لمواصفات فنية مخصوصة، فهو شعر الرمز والشفرة ، لا يمكـن للناقـد المتذوف للشعر الصوفى أن يمارس معه الطريقة التقليدية فى نقد الشعر .

وشعر الإمام له خصائصه الأسلوبية التى يتفرد بها عن غيره مـن شعراء الصوفية ، فمن الطبيعى أن لكل شاعر أسلوبه وطريقته فى التعبير عما يخالج نفسه من معانى وأفكار ، وما يفتح الله به عليه مـن معـارف وأسرار ، فإن الشاعر الحق هو من إذا قرأت شعره لا يُذكِّرك بغيره ، فإنه قد يتأثر بالبيئة وبالتراث الشعرى لكن يبقى متفرداً فى أسلوبه .

ومن الواضح أن للإمام لغة شعرية عالية الجودة متقنة ، تجعله يقف فى أعلى درجات فحول الشعراء لغة وأسلوباً وعلماً ، فقاموسه الشعرى لا تحده حدود ، فهو يغرف من بحر مفرداته واستشقاقاته التـى لا تنتهـى ، والتى يوظفها ببراعة ، إذ يوظف اللفظ الفصيح توظيفاً متقناً، فتأتى تراكيب كلامه غاية فى البلاغة والفصاحة ، ممزوجة رقـة وعذوبـة تـصاحبها موسيقى خفية تكسبها جمالاً فنياً، ولنتأمله فى اسـتقامته علـى صـراط الشريعة والتزامه التجرد التام حين يقول[1] :

---

(١) ديوان ضياء القلوب من فضل علام الغيوب بلإمام محمد ماضى أبو العزائم ١/٥ ، دار الصوفية ، ليبيا ١٤١٥هـ/١٩٩٥م .

والله يعفـــو ويُـــولينى عنايتـــهُ ‏ بعد التُّوب أرى التـــواب غَفَّـــارا
سترت عيبى فاغفر لى وجَمَّلنـــى ‏ لِما تحـــب اجعلنى ثم مختـــارا
إنى اعترفتُ بأوزارى فتُب واغفر ‏ وبدِّلنها بحـــسنى أَعْـــلِ مقـــدارا
الفضل فضلُك تُوليه لمن يرضى ‏ فأشـــــهدنى وهابـــــاً وســـــتارا

ويذكر عنه " أنه كان رضى الله عنه يقول الشعر فى غير مشقة ولا عناء حتى إنه كان يقول الشعر فلا يستطيع تلامذته أن يسجلوا مـــا يقولـــه لسرعة ورود البيت بعد الآخر " [١] ، ومع ذلك فإن أبيات شعره آية فـــى الجودة والبلاغة مع كونها آية فى المشاهد العلية والفتوحات الربانية .

فهو إذا سمع " قمرياً " يشدو على الأغصان ذهبت به هذه النغمـــات كل مذهب وتذكر هيامه بحبيبه ﷺ وحنينه إلى ربه جل جلاله فيقول[٢] :

لمن الحنين أبا أولى الأشواق ‏ هذا حنـــين الـــروح للخـــلاق
حنينك يا قمرى جدد لـــوعتى ‏ وأشهد روحى حسن وجه الباقى

مصنفاته الشعرية :

أما عن تصنيف قصائده التى نظمها فى خلواته ، فهى شاملة لآيات من التصوف باهرة فى نظمها ، ولو حاولنـــا أن نقـــسم شـــعره حـــسب الأغراض المعروفة فى الشعر العربى ، لقلنا إن منه الشعر الـــسياسى ، والاجتماعى، والوطنى ، وشعر المناسبات الدينية ، الذى يتضمن المـــدائح النبوية ، وأخيراً شعر التوجهات العرفانية والمواجيد التى يتفرد بها الشاعر الصوفى ، ويتضمن هذا اللون الأخير من الشعر ركن هام أفرده لأشـــعار

---

(١) الإمام محمد ماضى أبو العزائم ١٠٠ .
(٢) المرجع السابق ٢/١٧١ .

تشير إلى آيات قرآنية أو أحاديث نبوية ، فللإمام ديوان شعرى يتكون من أربعة أجزاء ضخمة ، ثم كتيب سماه شعر الجفر .

شعر " الجفـــر " :

ويتمثل الشعر السياسى والوطنى فى اعتقادنا فيما أسماه الإمام شعر " الجفر " وهو الذى يتعلق بالحوادث الغيبية، فهو علم يرى الصوفى أنه علمه الله لنبيه ﷺ ثم أملاه على الأئمة فصار علماً مودعاً عندهم " (١) .

والقارئ لشعر الجفر عند الإمام يلحظ أنه قد أحيط علماً بكـل مـا يحدث فى العالم من صراعات على الملك وفـساد الحكـم ، وانتهاكـات الاستعمار لحرمات الشعوب ، فيه نزعة وطنية متوقدة يقول مخاطباً الغرب المستعمر لشعوب الشرق(٢) :

يا بلاد الغرب هيـا واقلَعُـوا | تَاجَ الظُلْم فالحقيقـةُ لا تُغَـان
أنتُمُو سَـوْطُ انتقـامٍ للأولَـى | خالَفُوا الشرعَ فباءُوا بـالهوان
أنتُمُـو أفـسَدْتُم الأرضَ بمـا | قد أبَحْـتُمْ لاحَ ثَـمَّ النيـران
قد شكتْ إفريقيا مـن ظُلمِكُـم | كُلٌّ وادٍ فيـه ظُلْـمُ الثَّعلَبـان

ثم يقول(٣) :

فى رُبى مصر غيوبٌ جَمَّـةٌ | أنبأت بالذُل مَنْ للجمع خَـان
فى الأواسطِ فى السواحل نشوةٌ | تُلبسُ الظُلاَّم خزْياً فى هـوان

---

(١) راجع الجفر للإمام محمد ماضى أبو العزائم ٩ وما بعدها ، ط دار الكتاب الصوفى ط٣، ١٤١١هـ/١٩٩٠م .
(٢) المرجع السابق ٧٥ ، ٧٦ .
(٣) المرجع السابق ٧٦ .

يَرْجعُ الشرق إلى العزِّ الــذى كانه للقرآن عَدلاً فــى أمَــان
يرجعُ الغربُ إلى الجَهْلِ الذى كَانَ فيه ازدِرَاءٍ فى امتِهَــان

وشعر الجفر هذا محتاج إلى دراسة مستقلة وبحث مــستفيض لأنــه ثروة من المواجيد التى يكشف فيها الإمام أستار الغيب عما كان يحدث فى العالم من أحداث ، فقد بشَّر بزوال الاستعمار وبشروق الإسلام وبــالعودة للحكم بالكتاب والسنة ، كذلك بشر بقيام صراع بــين الكتلتــين الــشرقية والغربية ، وأنه بفناء الكتلتين ستظهر كتلة ثالثة تقتبس هداها من نور الله . ويالها من أمنيات نتمنى أن تتحقق فى زماننا شيئاً فشيئاً .

ومن أشعاره التى تشير إلى آيات قرآنية وأحاديث نبوية قوله[1] :

تجلى ظاهراً لى حال صفوى مع التنزيه فى غيب المعــانى
وفى نفسى وفى وجهى تراءى فألهمنى إلى الــسر المــصان

يشير إلى قوله تعــالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ (سورة فصلت : آية ٥٣) .

وقوله فى الذكر[2] :

لدى الذكر قلبى يشاهد معنــاه وفيه أنا المذكور والــذاكر الله

إشارة إلى قوله ﷺ من حديث قدسى : " من ذكرنى فى ملأ ذكرتــه فى ملأ خير منه " ، أو قوله تعالى : ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ (سورة البقرة : آية ١٥٢) .

---

(١) ديوان ضياء القلوب ١/٣٥٤ .
(٢) ديوان ضياء القلوب ١/١٦٥ .

العوامل التى أثَّرَتْ[١] فى شعر الإمام :

حين نسترجع الصورة للحياة التى عاشها الإمام أبو العزائم ، والزمن الذى ولد فيه وظل حتى توفاه الله ، يظهر لنا أنه ظهر فى فترة يحلم بهــا كل مثقف فى مصر .. فترة عصر النهضة ، فترة تزاحمت بالمتناقضات من استعمار جاثم على الصدور ، وأفكار تحررية ينادى بها الثوارفى كل بقعة من بقاع العالم ، وحضارة تغزو الشعوب ، وأغلال تقيدها .

فكان عصر النهضة زمناً مناسباً لظهور العظماء فى مصر خاصــة وفى العالم عامة .. عاش الإمام زمن مصطفى كامل ومحمد فريد وســعد زغلول ، وعاصر مختلف الحركات الوطنية ضد المستعمر والسلطة .

كذلك عاش عصر محمد عبده والأفغانى والكواكبى زعماء الإصلاح فى مصر والذين سماهم المؤرخون (مثلث الإصلاح) فكان الإمام قطبــاً من أقطابهم وعلماً من أعلامهم ، ويمكن أن نعده مع هؤلاء المناضلين فيما يسمى بـــ (مربع الإصلاح فى مصر) .

عاش زمن أحمد شوقى وحافظ إبراهيم وغيرهم من شعراء النهضة فى مصر وهنا نقول إنه فى الواقع لم يكن بعيداً عنهم بدليل أنـــه أحيانـــاً يستشهد ببعض أبياتهم الشعرية فى مؤلفاته النثرية .

فكان هؤلاء جميعاً رموزاً للعديد من رجالات مصر الأفذاذ الــذين أمدوا مصر بالعلم والمعرفة، ووقفوا مدافعين عن الحرية منادين بالخلاص.

---

(١) راجع الإمام محمد ماضى أبو العزائم (حياته ، جهاده ، آثاره) وأصول الوصول للإمام محمد ماضى ١٩١٢م ومذكرة المرشدين والمسترشدين للإمام محمد ماضى أبو العزائم ، دار المدينة المنورة ط ٢ ، ١٤٠٣ هــ / ١٩٨٣ م .

فلا غرابة أن يكون الإمام من طلائع الرجال الذين استبسلوا فى الدفاع عن الحريات ، وفى الوقوف أمام كل من حاول هدم الدين أو المساس به .

كل هذه العوامل فضلاً عن ثقافة الإمام الواسعة التى استوعبها من الكتاب والسنة وقراءاته المستمرة للتراث العربى ، من مؤلفات دينية وأدبية وشعرية ، هذا بالإضافة إلى أن تنقلات الإمام الدائمة بين البلاد والبلدان قد حققت له ثراءً فكرياً عالياً، وفوق كل ذلك نشأته فى بيت علم وعلماء ، فكان أبوه من خيرة علماء عصره . وأخيراً فإن للإمام سياحاته الفكرية الخاصة به حيث كان يطيل النظر ويتفكر كثيراً فيما حوله فكان الله هاديه إلى المعرفة دون تدخل خارجى أو مؤثرات على فكره .

فله فى هذا الشعر نظرة مستوعبة للأحداث لذلك يعتبر سجلاً تاريخياً لأحداث العصر ، فمن مميزاته رضى الله عنه أنه كان يؤرخ لكل قصيدة ، فإذا ما تتبعنا الأحداث التى يذكرها ، وتابعنا الوضع السياسى فى زمنها ، لوجدنا أن القصيدة أشبه بالخريطة السياسية لأحوال العالم آنذاك .

وفى الواقع فإن شعر الجفر يحتاج إلى دراسة خاصة ، ومن العجيب أن معظم توقعاته قد حدثت من تراجع للاستعمار ، وتراجع لسطوة الألمان والروس ، وظهور قوى جديدة فى الغرب ممثلة فى أمريكا، وكان يعيب على العرب والمسلمين باستمرار كثرة خلافاتهم وعدم ائتلافهم ويعد ذلك من أسباب تفككهم وضعفهم ، وتنبأ بأنهم سيظلون على هذه الحال طالما ظلت الفرقة طريقهم، وطالما لم يتحدوا تحت لواء الدين الإسلامى الحنيف.

وصدق الإمام وصدقت توقعاته فمازال الأشقاء مختلفين ، ومازال الإخوة يتناحرون ويتقاتلون . ومازال تفككهم سبباً لضعفهم ، فما بالنا لو

عاد الإمام أبو العزائم اليوم ، لاشك سيصاب بخيبة أمل وحزن على أحوال المسلمين فى العالم كله .

ويؤثر عنه أنه خاض معركة[١] التحدى فى كل الاتجاهات وخاصة فى تشجيع النمو الاقتصادى والاجتماعى، ولنذكر على سبيل المثال أنه:

- أيد حركة البعث التعاونية فى الشرق ، حيث اقتبس التعاونيات عن بعض البلدان الأوربية التى زارها عام ١٩٠٨ م ، فاتحد معه الشيخ عبد العزيز جاويش وتنقلوا بين المدن المختلفة حتى وصلوا إلى مدن الصعيد يعلنون عن فكرتهم التعاونية .
- كما كان دائم التذكير بأن الله سخر الأرض للإنسان ، ليمارس العمل فيها بغية الاستفادة من خيراتها المخبوءة فى باطنها ، فعلى المسلمون أن ينقبوا عن هذه الخيرات بأيديهم ، بدلاً من تركها للمستعمر ، فيرى أنه يجب أن يكون المسلمين أغنياء لا يتركون غيرهم يستثمر أموالهم ويثرى على حسابهم ويستخدمهم كطاقة بشرية واقتصادية فتغتنى شعوبهم بقدر ما تفتقر شعوبنا .

وبعد فلا داعى للإطالة فى الحديث عن أحوال المسلمين لأنها تحدث فى الحلق غصة . فسوق تقوم الدراسة على تحليل أهم أغراض الإمام الشعرية وهو: الشعر الوطنى .

---

(١) راجع الإمام محمد أبو ماضى أبو العزائم ٨٠ وما بعدها .

الفصل الأول

الشـــعر الوطنى

وهنا يتطرق سؤال لابد منه : لماذا اخترت شعر الوطنيـــة لتناولـــه بالتحليل البلاغى ؟

أقول إن هذا الجانب من شعره ربما يستغربه القارئ فالكل يعلـــم أن الإمام أبا العزائم رجل دين متصوف عارف بالله ، يحفظون عنه بعـــض مواجيده وعرفانياته، لكن هذا اللون من شعره قلما عرفه القـــارئ، ونبـــدأ ببعض أشعاره فى الإسلام ذلك لأنه يعتبر الإسلام وطنه الـــذى يجـــب أن يزود عنه ويحميه .

فقـــد ظل الإمام أبو العزائم يشدو معظماً لله الواحد القهار ومفاخراً بمحمد رسول الله مشيداً بوطنه الإســـلام فالإسلام عند وطن كـــل مـــسلم فيقول عن الإسلام[1] :

بربكم وطنـــى الإســـلام أَفديِـــه ... بالنفسِ والمالِ والـــرحمن يُعليـــه
وكل من ناوأ الإسلام غطرســـة ... هـــو العـــدو بعـــون الله أرميـــه
والمسلمون هُمو نفسى وحبهمـــوا ... فرضٌ علىَّ بصدق القول أزويـــه
الدين موطن نفسى أصل رفعتها ... من شر كل أولى الطغيان تحميه

تأمل كيف يبدأ الأبيات بالقسم بالرب ، إنه مستعد للفداء فيقدم (وطنى الإسلام) على الفعل المضارع أفديه ، لما للدين من قداسة وعلو منزلـــة ، وزيادة فى الإشعار بمدى تعلقه بدينه وارتباطه به يضيف ضمير المـــتكلم

---

(١) ديوان ضياء القلوب ٣٤٣/٢ .

إلى (وطن) ، وفى الشطر الثانى يوضح بماذا يفديه (بالنفس والمال) من باب التفصيل بعد الإجمال ، ثم يقدم (الرحمن) لقداسته وتعظيمه يقدمه على الفعل (يعليه) أن الله وحده قادر على أن يعلى الإسلام إلى أن تقوم الساعة ولا قادر غيره.

وفى البيت الثانى ، جاءت الواو استئنافية ، و (ناوأ الإسلام) مجاز مرسل ، أى (من ناوأ المسلمين) لعلاقة الملازمة والمجاورة (غطرسة[١]) مفعول لأجله أكد به أن العداوة من باب التطاول وظلم المتكبر ، ثم يقصر كل مناوئ للإسلام على أنه العـــدو ، والقصــــر بضمير الفصل (هو) أى هو لا غيره، ثم يقرر ويؤكد بتقديم الجار والمجرور فى قوله (بعون الله) أنه سوف يرميه ، ورَمْى العدو يكون بالسلاح أو بالكلمة .

ويأتى البيت الثالث مقدماً بالمسند إليه (المسلمون) المسبوق بـــواو الاستئناف ليؤكد على حبهم فجعلهم كنفسه إعلاءً لقدرهم عنده وليس القصد هنا التشبيه وإنما الادعاء للمبالغة فى التعبير عن شدة حبه لهم وتعلقه بهم ، ثم شبه حبهم بالفرض عليه ويقرر أنه صادق فى ذلك القول .

وفى البيت الرابع شبه الدين بموطن نفسه للتأكيد على ارتباطه الشديد بدينه ، كما يجعل الدين أصل لرفعة نفسه ، فينزلهـــا منزلـــة المحـــسوس فيجعل لها رفعة على سبيل الاستعارة المكنية ، ويأتى الشطر الثانى كلـــه معلقاً بالفعل (تحميه) فى آخره إذ يؤخره رغبة فى التأكيد على أنه (من شر كل أولى الطغيان) سوف تحمى (نفسه) الدين فالنفس كائن حى يحمى الدين ، وقوله (كل) للشمول ، فإنه لا يستثنى طاغية سواء مـــن داخـــل الوطن أو من خارجه، وهكذا يتضح من الأبيات حرص الإمام على دينـــه

---

(١) لسان العرب مادة (غطرس) .

الذى هو وطنه الأول ، كما يتضح ولعه بتركيب الكلام وانتظام المعانى بلغة المجاز فهو دائماً ينتقل من استعارة إلى أخرى .

ومعلوم أن لغة المجاز أبلغ من الحقيقة ، " وقرائن المجاز وإن كانت كثيرة ، لكن يجمعها أمر واحد ، وهو ما يدل علىتعذر جمله على معناه الحقيقى فالعقل يهتدى إلى المعنى المراد المجازى ، وكلما كان المعنى الحقيقى غير مراد كان المعنى المجازى مراداً " (١) .

هذا هو الإمام يحمى الإسلام بنفسه ويرمى عدوه المتغطرس الطاغية، فكل من قصد الإسلام بسوء هو له .

ثم نراه يتغنى مازجاً بين وطنه الإسلام ووطنه الذى نشأ فيه فيقول(٢):

وطنى نعم أمى وأبى ونسيمه — روحى وريحانى بهاتيك الدمن
احفظهُ تُحفظْ من سُرورٍ فى شِفاً — احذر ترى فيه المزايا والمنن
وطنى وما وطنىسوىالأرض التى — فيها ولدت وطيبها قلبى فطن
الإسلام دينى بل هو الوطن الذى — قد جاءت الآثار فيه والسنن

ومن الأبيات السابقة نتلمس لغة الإيجاز التى تميز بها شعر الإمام، فيبدأ البيت الأول بقوله (وطنى) المسند إليه المتصل (بياء) المتكلم يريد (وطنى نعم هو الذى يحتضن أمى وأبى) ، وكأن هناك من يسأله فيجيب (نعم) وهو سؤال مقدر محذوف ثم يقول (ونسميه روحى وريحانى)

---

(١) الإشارات والتنبيهات محمد بن على الجرجانى ٢٠٥ (بتصرف) تحقيق د. عبد القادر حسين ، دار نهضة مصر .

(٢) ديوان ضياء القلوب ٢/٥٠١ .

على سبيل التشبيه ويأتى اسم الإشارة (هاتيك) للبعيد و(الدمن) آثار الديار ، فلم يقل (بهاتيك المدن) ، لأنه يرى الأرض كلها من الآثار الزائلة والبقاء لله وللدين ، وفى قوله (وطنى نعم أمى وأبى) تشبيه وطنه الإسلام بالأم والأب وهو يكنى بذلك عن أن الإسلام أصل الحياة وهو الملجأ والمنشأ . ولنتأمل الالتفاتة الطريفة فى (ونسميه) بضمير الجمع ، ثم يقول (روحى وريحانى) بضمير المتكلم المفرد ، وهذا الجناس شبه الاشتقاق بين اللفظين وما يتركه من إيقاع متناغم رقيق .

ويبدأ البيت الثانى بفعل الأمر (احْفَظْهُ) وهو يخاطب كل إنسان يعيش على أرض الوطن بأسلوب الأمر وقد خرج الفعل إلى معنى النصح وجاء بمعنى الشرط بأداة مقدرة الذى جوابه (تُحفظُ) ، ثم يأتى بفعل أمر آخر (احذر) بمعنى النصح أيضاً ، وبمعنى الشرط بأداة مقدرة وجوابه (ترى فيه المزايا والمنن) والحذر هنا لا يعنى الحذر على الحقيقة وإنما استعارة تبعية بمعنى احرص عليه لأن فيه مزايا كثيرة لك وفيه أيضاً نعم وعطايا لا تحصى . ثم يقدم الجار والمجرور (فيه) للتأكيد على أن من يعطى الوطن لابد وأن يمنحه الوطن السكن والطمأنينة ، وواضح ما أحدثه التركيب (احفظه تحفظ) (احذر ترى) من تجانس وشعور المتلقى بأن الجزاء يحصل بمجرد البدء والعمل .

أما البيت الثالث فيكرر تقديم المسند إليه (وطنى) ثم يأتى بجملة قصر (وما وطنى سوى الأرض التى فيها ولدت) ، فيقصر وطنه على أرض مولده ، وذكر الاسم الموصول (التى) للتقرير ، وتقديم الجار والمجرور (فيها) للتأكيد على أن أرض مولده هى وطنه الحقيقى إشارة إلى أن الإسلام وطن روحه وعقله ، ودائماً الإمام يقدم ويؤخر فى الكلام

وذلك من بلاغة النظم عنده ، فيقول (وطيبها قلبى فطن) يريد : وفطن قلبى طيبها ، وتقديم (طيبها) للإسراع بذكر ما تنتشى له القلوب وتسر لسماعه الأذن .

ثم يؤكد فى البيت الرابع بأسلوب القصر بطريق تعريف الركنين (الإسلام دينى) ثم يعود ويقصره على كونه الوطن بضمير الفصل (هو) إذن للإمام وطنان ، وطن ولد وعاش فيه ، ووطن آخر هو الإسلام الذى تربى على آثاره وسننه ، ولا تناقض بينهما فهناك وطن يتنقل فيه بجسده ، وهناك وطن آخر يتنقل فيه بروحه وعقله .

ويظهر جلياً فى أغلب القصائد تأثره البالغ بالقرآن والسنة بحيث يقتبس[١] – كثيراً – من القرآن والحديث بعض العبارات التى تمثل عنده إشارات للمعانى التى يريدها ، فتأتى متناسقةمع عباراته الشعرية لا تشعر بنبو أو إقحام لهذه العبارات بل هى مكملة للمعنى موضحة له ، فمن ذلك قصيدة طويلة يؤكد من خلالها وعد الله للمؤمنين بالنصر والتأييد فيقول[٢] :

الله أكبر آى الذكر برهانى	فى " كان حقاً علينا " سُر تبيانى
أين الطغاةالألى راموا منازعة	للحق فى غفلة بغرور صلبان
قاموا بباطلهم والحق قاهرهم	رُدوا بخزى وإذلال وخسران
ذق " نحن نزلنا " تفهم إشارتها	قلبى اطمأن بها فى حصن ديان
" إنا لننصر " حصن المؤمنين نعم	وفى " يدافع " برهان لنا ثان

(١) الاقتباس هو : (أن يضمن الكلام شيئاً من القرآن أو الحديث ، لا على أنه منه) انظر الإيضاح للخطيب القزوينى ٣٥٩ تحقيق د. عبد الحميد هنداوى ،مؤسسة المختار ط ١ ، ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م .
(٢) المرجع السابق ٥٥٢/٢ .

الله أكبر لما جمعوا جموعهمـــو	كىيطفئوا النور من إنس ومن جان
الحق يعلو ومن عـــاداه يمحقـــه	بالقهروالذل أو بـــشواظ نيـــران
هم يمكرون ولا يـــدرون عاقبـــة	والمكر منهم عليهم نص قـــرآن
ردوا وخابوا " ويأبى الله " تنبئنـــا	عن الحقيقـــة فاقرأهـــا بإيمـــان

والأبيات من قصيدة تظهر قوة الإمام الوطنى الثائر الغيور على دينه ووطنه . تأمل كيف جاء الاقتباس من القرآن رائعاً ، لا يـــشعر القـــارئ بلفظة دخيلة أو غريبة فى موضعها ، حيث يستنهض الهمم ويدفع المؤمنين للتصـــدى لعـــدو الله والوطن ، ويذكرهم بآيات الله التى هى قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (سورة الروم : آية ٤٧) ، ﴿ إِنَّـــا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (سورة الحجر : آيـــة ٩) ، ﴿ إِنَّـــا لَنَنصُـــرُ رُسُلَنَـــا وَالَّذِينَ آمَنُـــوا فِي الْحَيَـــاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ ﴾ (سورة غافر : آية ٥١) ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ (ســـورة الحج : آية ٣٨) ، ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَـــاكِرِينَ ﴾ (سورة الأنفال : آية ٣٠) ، ﴿ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُـــورَهُ ﴾ (ســـورة التوبة : آية ٣٢) .

تأمل كيف نظم الأبيات بسلاسة وقد ضمَّن الكلام بعض ألفـــاظ مـــن آيات القرآن وهو يسأل فى البيت الثانى (أين الطغاة الألى راموا منازعة) ففى قصص القرآن ما يدل على أن الطغاة على مر السنين قـــد انـــدثروا وخابوا وأزلهم الله . والاستفهام فيه معنى التهكم والسخرية من الطغاة الذين أرادوا (أن يطفئوا النور) على سبيل الاستعارة الأصلية من تشبيه الحق بالنور لتجسيد المعقول وتصوير(الحق) بنور الله الذى عجز الطغاة أن يطفئوه.

ثم شبه (الحق) فى البيت الثالث بالقاهر الذى يقهر الطغاة على سبيل الاستعارة المكنية وقوله (ردوا بخزى وإذلال وخسران) فيه تفصيل لمـــا

أجمل فى قوله (قاهرم) ، وفى البيت السابع يعود فيشبه الحق ببنيان يعلو ولا يُعلى عليه والحق هو دين الله ، ثم شبهه بمن يمحق كل من عاداه على سبيل الاستعارة المكنية فى قوله (ومن عاداه يمحقه) ثم فَصَّل كيف يمحقه (بالقهر والذل أو بشواظ نيران) ، فمن الواضح أن الإمام كان كثير الفصيل والتوضيح بعد الإجمال .

ثم يقول فى البيت الثامن (هم يمكرون) يريد أعداء الدين والوطن ، وذكر المسند إليه بالإضمار ليتضمن كل من يعادى ، أى للشمول وللتأكيد أيضاً على مكرهم جميعاً ، ولنتأمل العبارة الطريفة (والمكر منهم عليهم نص قرآن) وما فى النظم من إيقاع منسجم والقول يشير كما ذكر إلى قوله تعالى : ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ﴾ .

وفى موضع آخر يخاطب أهل الصليب قائلاً [1] :

أهل الصليب لقد راموا محاربة ... للحق والحق يمحق ذا جهل وطغيان
أهلكت عاداً فأهلكهم بقاصمة ... للظهر تمحقهم فى كل أزمان
أيد شريعتك السمحا بنصرك يا ... غوث الشريعة فى سر وإعلان
الله أكبر جاء الحق فانمحقت ... بالنور ظلمات كفار وشيطان

وتقديم قوله (أهل الصليب) للانتباه ، وكأن سؤالاً مضمراً فى النفس معناه : ما بالهم أهل الصليب لتأتى الإجابة جملة الخبر (لقد رموا محاربة) ، و (لقد) للتأكيد ، وقوله (للحق والحق يمحق ذا جهل وطغيان) ففى العبارة نظم متجانس منسجم من تكرار (الحق) مع الفعل (يمحق) ، وقد جعل الحق (يمحق) على سبيل المجاز العقلى من إسناد

---

(١) المرجع السابق ٢/٣١٥ .

الفعل إلى غير فاعله فالذى يمحق هو الله الذى يسخر عباده لمحق الطغيان، وإذا اعتبرنا أن (الحق) من أسمائه تعالى فالعبارة على الحقيقة .

وقوله فى البيت الثانى (أهلكَتْ عاداً) فيها خطأ نحوى والصحيح (عادٌ) فاعل والدليل قوله بعد ذلك (فأكلهم) أى الله فيها إيجاز بالحذف بمعنى: أهلكت عاداً القوم بأفعالها ، فأهلكهم الله بقاصمة كناية عن (الريح الصرصر) التى قضت عليهم وقوله (تمحقهم فى كل أزمان) يكنى بذلك عن أن الله يمحق الظالمين بقاصمة أمثال عادٍ فى كل زمان .

وفى البيت الثالث يتوجه إلى الله داعياً راجياً فيقول (أيد شريعتك) ثم يناديه ضارعاً (يا غوث الشريعة) .

وقوله فى البيت الرابع (جاء الحق) والمراد جاء به نبى الله محمد فأسند المجئ إلى الحق على سبيل المجاز المرسل ، لتقرير حقيقة واقعة بإذن الله فى المستقبل ، وقوله (فانمحقت بالنور ظلمات) على سبيل الاستعارة الأصلية من تشبيه الهداية بالنور والضلال بالظلمات وهى من الاستعارات التىأصبحت كالحقيقة وزاد عليها استعارة فى الفعل (فانمحقت) بمعنى زوال الضلال ، الذى شبه بشئ محسوس يمكن محقه وزواله .

وهنا نستطيع أن نجيب عن سؤال ربما يتردد ، وهو لماذا يعتبر شعر الإمام مختلفاً عن شعر غيره من أهل الصوفية ؟

والجواب: إن شعر الإمام أبا العزائم منظم مرتب بطريقة مخصوصة، شعر قائم على الفكرة تكاد كل قصيدة تعبر عن مقصود معين ، وتتجه وجهة معينة ، وهو لم ينفصل أبداً – فى تصوفه – بأفكاره عن مجتمعه بل إن شعره ينبض بحب ووفاء شديدين للوطن ، وحث لأمته للعودة إلى أمجاد

الماضى التليد ، وهذا ما نلمسه من خلال عرض نماذج ما هى إلا بعض من كثير .

فى حين إن أغلب الشعراء المتصوفين تدور أفكارهم حول معـــانى محدودة فأشعارهم فى الغالب ما هى إلا مواجيد عرفانية وخواطر فكرية ، يكنى عنها فى الغالب بصور محسوسة . أما شعر الإمام فهو كما قلنا قراءة منظومة لأفكاره ، وآرائه الحماسية الصريحة الواضحة .

ولنتأمل فى شعره الوطنى ما قاله عن مصر التى طالما دعـــا لهـــا بالتقدم والرخاء والرفعة وتمنى أن تفيق من نومها وتهـــب مـــن رقـــدتها لملاحقة ركب الحضارة فيقول معاتباً [١] :

أنت يا مصر الكنانة مـــا الـــذى   قد ألان العودَ للخْصمِ المحـــارب
فَـــرَّقَ الجَـــشَعُ الخبيـــثُ أحبـــةً   فانبرى للقومِ غَـــصَّاب وسَـــالب

وقوله (أنت يا مصر) ففى ذكر ضمير المخاطب (أنت) مع النداء نوع من التقرب والتودد والمؤانسة والتنبيه لاستقبال ما يقوله ، ونداء مصر على سبيل المجاز المرسل يريد نداء المصريين ، لعلاقة المجاورة ، فـــإن مصر يعيش فيها المصريين ، وقوله (مصر الكنانة) لتذكيرهم بقدسية هذا البلد وأنها كنانة الله فى أرضه التى ذكرها الله فى قرآنه . ثم يوجه إلـــى المصريين سؤالاً : ما الذى قد ألان العود للخـــصم المحـــارب والـــسؤال بغرض التنبيه وإثارة الحمية فى النفوس ، وفيه تعريض بمن خضعوا للعدو ولانوا له .

---

(١) الجفر للإمام محمد ماضى أبو العزائم ٥٨ .

ثم يخبر فى البيت الثانى بأن الجشع الخبيث هو السبب فـــى فرقـــة الأحبة والخبر من الضرب الابتدائى، تنزيلاً للأمر منزلة الخبر المعلـــوم، وفى (فرق الجشع) استعارة مكنية من تشبيه الجشع بمن يفرق الأحبـــة ، وتجسيده ووصفه بالخبيث ليكنى عن سريانه بين الناس دون أن يشعروا به، وقوله (فانبرى للقوم غصاب وسالب) فيـــه تقديم الجار والمجرور (للقوم) للاهتمام بالمقدم وللتأكيد ، وفى الفعل استعارة مكنية فالجشع يفرق وينبرى، وصيغة المبالغة (غصاب) للتأكيد والمبالغة فى وصفه وللتنبيه إلى كثرة ما يغصبه من حقوق القوم . وعطف المترادف بين (غصاب ، وسالب) لأن الغصاب هو الذى يسلب الناس حقهم ، وكما هو معلوم فإن الشاعر قد يكمل البيت بمرادف يناسب القافية ، والشاعر البارع هـــو الـــذى يـــأتى بمرادف يزيد فى المعنى ويؤكده .

ويتوجه فى قصيدة أخرى متعجباً ممن يبغون الردى والهلاك لمصر وهم " شعبة " ضالة ، فيقول [١] :

فيكِ يا مـــصرُ عجائـــبُ جمـــةٌ   تقتضى التنكيلَ من بعـــدِ اللِّعَـــان
مصر فيها شُعبة تبغِـــى الـــردَى   ألسن السوءِ لهـــم يـــوم الهـــوان
فيك يا مصر رجـــالٌ خصـــصوا   بانتصار الخصم بالحرب العوان

يبدأ البيت بجار ومجرور (فيك) للتوكيد وشد الانتباه للتفكير فهـــو يريد التأكيد على أن فى مصر عجائب جمة تحتاج للتبصر والتفكر ، وقوله (تقتضى التنكيل من بعد اللعان) يقصد هذه الشعبة التى تريد الهلاك لمصر يجب لعنها ثم التنكيل بها والجملة بيان وتفسير لقوله (عجائب جمة) ثـــم

---

(١) ديوان ضياء القلوب ٥٦ .

يعود فى البيت الثانى ويوضح أكثر ، فإن هذه العجائب هى تلك الـــشعبة الموجودة فى مصر ويريد مجموعة من الناس الـــذين بـــاعوا ضـــمائرهم يريدون الهلاك للمصريين ، ثم يشبههم بـــ (ألسن السوء لشعب مصر يوم الهوان) وفى التشبيه كناية عن الخيانة والخداع ، ثم يقدم فى البيت الثالث الجار والمجرور (فيك) للتأكيد مرة ثانية على وجود رجال (خَصصوا) كناية عن أنهم وهبوا أنفسهم لنصرة العدو ولنتأمـــل التجـــانس النـــاقص (خُصصوا ، الخصم) وتكرار الصاد فى البيت مما زاد من صدى وقعـــه على الأسماع .

ثم يعود ويتعجب كيف يحارب أهل مصر أهلهم فيقول[١] :

وى عجيب مصر حارب أهلهـــا ... أهلها والخصم من فوق المراتب

يجهلـــون الغيـــب والغيـــب إذا ... لاح يمحو كل مغـــرور وناكـــب

عندها الإســـلام يظهـــر عاليـــاً ... فرح الأفـــراد والقـــوم مـــشارب

وقوله (وى)[٢] للتعجب والتحسر ، وقوله (مصر حارب أهلهـــا أهلها) كناية عن الفتن الطائفية التى حلت بـــين شـــعب مـــصر . وقولـــه (والخصم من فوق المراتب) كناية عن فرحة الخصم وشماتته ووقوفه ينظر لهذه الحرب بين أهل مصر ، وهو بعيد عن أى ضرر أو خطر .

وقوله فى البيت الثانى (يجهلون الغيب) كناية عن نصر الله الآتى لا محالة أو عن عدم الإيمان بنصر الله ، بدليل قولـــه (والغيـــب إذا لاح

---

(١) الجفر للإمام محمد ماضى أبو العزائم ٤٦ .

(٢) وى : اسم فعل بمعنى(أعجب) المعجم الوسيط فى الإعراب٣٣٢ صنفه د. نايف معروف، راجعه د. مصطفى الجوزو ، دار النفائس ، بيروت ط١ ، ١٤٠٨هـــ / ١٩٨٨م .

يمحوكل مغرور وناكب) وقوله (عندها) أى وقتها ، وتقديم (الإسلام) على الفعل (يظهر) فى البيت الثالث للتأكيد على أن قوة الإسلام تنتصر فى النهاية ودائماً يقدم ما يسر ، والبيت فيه مجاز بالحذف فى قوله (فرح الأفراد والقوم مشارب) بمعنى : وسوف يفرح الأفراد بالنصر ويشربون احتفالاً بذلك ، ولكنه يرى بارقة أمل فى مصر وأهلها ويبشر بصحوة كبرى تزيل كل أثر للمستعمر فيقول[1] :

مصر من نومها تهب تسارع لاتحاد مؤيد بالمناسب
مصر فيها نجم يضئ فيحيى كل قلب قد نام فى ظل قالب
يوقظ النائمين ماء حياة نيل مصر حياتها والمكاسب

يبدأ بذكر المسند إليه (مصر) اسم علم للتنبيه وللتلذذ بذكرها أولاً ثم يقدم الجار والمجرور (من نومها) لإثارة التنبيه والحث على اليقظة بعد النوم ، وقوله : (تهب ، تسارع) من إسناد الفعل إلى مصر والمراد أهلها على سبيل المجاز المرسل وقوله (مصر فيها نجم يضئ) يرجو أن يخرج منها البطل الهمام الذى يقود البلاد إلى النصر ، فيشبهه بالنجم يضئ على سبيل الاستعارة الأصلية ، ثم يشبهه بالترياق الذى يحيى كل قلب (قد نام) و(الإحياء) استعير لمعنى الإيقاظ والصحوة والمجاهرة بالحق على سبيل الاستعارة التبعية والنوم مجاز بالاستعارة الأصلية بمعنى الغفلة أو الضعف والكسل ، وقوله (نام فى ظل قالب) كناية عن نسبه وهى الغفلة المستمرة التى لا حراك لها ، والكناية هنا مجازية لأن القلب لا ينام ولكن صاحب القلب هو الذى ينام والنوم كما يظهر بمعنى الغفلة والسكون وعدم الثورة

(١) المرجع السابق ٤٧ .

على الطغاة فإسناد النوم إلى القلب مجاز مرسل علاقته الجزئية ، فإن لما نسب إليه النوم فى ظل قالب ، أفاد إثبات الصفة المذكورة له بطريق الكناية ، ثم يقول (يوقظ النائمين ماء حياة نيل مصر حياتها) ، بمعنى سوف يوقظ باعتبار ما سيكون ، فيشبه ماء النيل بماء الحياة الذى يحيى أهل مصر ، ففيه حياتها ومكاسبها وهو يعبر بذلك عن أهمية النيل للمصريين . إذ يذكر المصريين " بالنيل " الذى يهب الخير والرزق لهم ، والإمام فى تكراره لذكر (مصر) و (النيل يذكرنا بحافظ إبراهيم الذى لقب بشاعر النيل والحقيقة أنه يبدو تأثر الإمام بهذا الشاعر القدير وربما احتاج ذلك إلى بحث خاص عن مصر والنيل فى ديوانيهما .

ويبشر بقدوم فتى مصر الذى يقيلها من عثارها ويحررها ومعها السودان الشقيق فيقول[(١)] :

مصر هبت سوف يأتيها الفتى ... يجمع الأمر بها ثم السودان
يا بنى مصر أفيقوا فالجفا ... مكَّن الأعداء منكم كيف كان
جاس أرضكم العدو فوحدوا ... أمركم فالوقت بالتحقيق هان

(ومصر هبت) يريد شعب مصر سوف يهب ، فعبر بالماضى عما يرجوه أن يحدث فى المستقبل ، (والفتى) كناية عن القائد الذى سوف يأتى وقوله : (يجمع الأمر) كناية مجازية عن تحقيق النصر ثم يتوجه إلى بنى مصر فيقول (أفيقوا) فعل أمر خرج إلى معنى النصح والإرشاد، ويكنى (بالجفا) عن الفرقة ، ثم ينبههم إلى خطر العدو الذى جاس أرضهم ويقول (وحدوا أمركم) والأمر أيضاً بغرض النصح وقوله

---

(١) المرجع السابق ٤٨ .

(والوقت بالتحقيق هان) كناية عن قدوم الخطر ، وكلها كنايات مجازية لأنه ليس الغرض من هذه العبارات التشبيه ، وإنما هى من إطلاق اللفظ وإرادة لازم معناه فقط والشاعر يقول ذلك الكلام غير عابئ بما سيحدث له من الأعداء ، وما يدبرون له ، فكان الإمام يعلم أن الله حاميه وناصره ، وكما اتضح من الأمثلة فقد كان الإمام بوصفه معلماً ومصلحاً ومرشداً ، يوظف فعل الأمر بغرض النصح والإرشاد وخاصة إذا توجه بالخطاب إلى قومه أو العرب أو المسلمين .

ومن دلائل حبه للوطن وعمله الدائم من أجل مصر ، أنه كان رضى الله عنه – يؤيد بشدة إقامة المشروعات التى يقوم بها الأفراد والجماعات ، أو الحكومة ما دامت لخدمة خير الأمة وتقدمها .

ومن وطنية الإمام أن يذكر شعبه بالكنوز والثروات الموجودة فى باطن الأرض والتى يهدينا ديننا إلى استثمارها يقول(١) :

تحت ذا الترب المعادن نعمةٌ سُخِّرت للعقل والمولى وهب
ديننَا الإسلامُ يهدينا إلى أن ما فى الكون للعلم سبب

فيبدأ بظرف المكان (تحت) للتنبيه والتشويق لما بعد (تحت) ، والمعادن من نعم الله على الحقيقة وفى الكلام إيجاز بالحذف بمعنى (هى نعمة) ، وقوله (سخرت للعقل) تعريض بمن لا عقل لهم أى أن البحث عنها يحتاج للعقول المفكرة ، والواو فى (والمولى) من الاستئناف بعد الفصل .

---

(١) ديوان ضياء القلوب ٢١٠/١ .

وفى البيت الثانى لم يقل (الإسلام يهدينا) ولكن سبق بقوله (ديننا) زيادة فى التأكيد والإشعار بعظمة هديه وإضافة (نا) الفاعلين للتأكيد على شدة الترابط بين الإنسان ودينه ، وبمعنى أن ديننا يخصنا بالهداية وللتأكيد على أن ما يهدينا إليه ديننا هـو الحق . وقوله (أن ما فى الكون سـبب للعلم) بتقديم الجار والمجرور (للعلم) حث وتوجيه بجملة خبريـة مـن الضرب الطلبى ، لكى يعلم المسلمون أن هذا الكون بما فيه مـن أسـرار مخبوءة لا سبيل إلى معرفتها إلا بالعلم ، وكأن الله قد جعل المعادن فـى باطن الأرض والجبال ليبحث أصحاب العقول الذين يرغبون فـى العلـم والمعرفة .

ويقول[١] :

اقرأ الآى فـى سـياج الكيـان	منبئـات بنعمـة الـرحمن
فوق أرض من حولها الماء كنز	فيـه قـوت لكـل قـاص ودان
أيها الأرض فيـك خيـر وفيـر	لاح حـسا بهمـة الإنـسان
فيك آى البديع معنـى صـفات	قـد تـراءت لرفعـة الإنـسان
يا إلهى أظهرت غيبـاً مـصوناً	فى نبـات وفـى معـان مبـان

ففى (اقرأ) أمر للإنسان المصرى المسلم خرج إلى معنى الحث ، والفعل مجاز بالاستعارة التبعية بمعنى (اعلم) و(ابحث) عن معجزات الله فى (سياج الكيان) من تشبيه الكون أو الجـسد الإنـسانى بالمكـان المضروب عليه بالسياج على سبيل الاسـتعارة المكنيـة والعبـارة مـن

---

(١) ديوان ضياء القلوب ٣١١/١ .

المصطلحات الصوفية ففى الكون النعم التى وهبهـا للبـشر ولكنـه أراد سبحانه أن يعملوا عقولهم ويفكروا لمعرفتها والحصول عليها .

ثم يحدد الشاعر آية من آيات الله أنعم بها على أهل مصر وهى ماء النيل ، فيقول (فوق أرض من حولها الماء كنز) ففـى الكـلام إيجـاز بالحذف بمعنى فهذه الآى (فوق أرض) ثم يشبه الماء بالكنز لأنها قـوام الحياة ويعلل ذلك فى الشطر الثانى بقوله (فيك قوت لكل قـاص ودان) فيقدم الجار والمجرور على عادته فى التقديم دائمـاً للاهتمـام بالمقـدم ، وجعـل فى الماء قوت على سبيل المجاز العقلى علاقتـه الـسببية ، لأن الماء سبب فى إنبات الزرع والزرع يقتات منه الناس والدواب البعيد منها والقريب .

ثم يتوجه إلى الأرض منادياً (أيها الأرض فيك خير وفير) والنداء للتنبيه وتنزيل الأرض منزلة المخاطب تعريضاً بصاحب الأرض الذى يقل اهتمامه وتضعف همته تجاهها ، وكأنه يتحسر على هذا الإهمـال الـذى أصاب الناس فلا يبحثون عن الخير الوفير فى الأرض ، أو الذين يتركونها صحراء لا زرع فيها .

ثم يتوجه إلى الإله منادياً بغرض المناجاة فيقول (يا إلهى أظهـرت غيباً مصوناً فى نبات وفى معان مبان) وفيه امتنان لهذه الآى العظيمـة التى حفظها سبحانه فى النبات وفى كل شئ من حولنا .

وديوان الإمام أبو العزائم زاخر بالأشعار التى تحـث المـصريين والمسلمين عامة للاهتمام بالعمل الجاد الذى يحقق الرخاء والنمو الاقتصادى، فكان يستنهض الهمم لتكوين الشركات الزراعية والتجارية والصناعية .

كان دائماً يتطلع إلى مجتمع متكامل يجمع بين العلم والعمل ، ويؤكد دعوة ديننا الإسلامى للعمل والكسب المشروع فيقول : " إن ديننا يحض على العمل وعلى اقتناء المال من وجوهه المشروعة ، يجب أن تكون خيرات أرضنا لنا ، وخيرات تجارتنا قصراً علينا ، أن تكون لنا صناعات تغنينا عن استيراد ما نحتاجه من سوانا " [١] .

إن شعر الإمام أبا العزائم زاخر بالمواقف[٢] البطولية التى لا تخفى على قارئه ، فقد قيل : إنه كان دائم التخفى وراء الرموز والإشارات فى مناهضة الأعداء خوفاً من بطشهم لكن الحقيقة ماثلة أمامك أيها القارئ فشعره شعلة متوقدة من الحماس والفدائية ، فقد كان يعلن صراحة بغضه للمستعمر بل كان يواجهه موقفاً بموقف ، ودون مواربة.

وتتجلى وطنيته حينما استطاع أن يرتدى ملابساً من صنع شركات مصرية فكان من طلائع المشجعين للصناعة المحلية والرافعين شعار " صنع فى مصر " حتى إنه أقنع عدداً كبيراً من أتباعه على ارتداء الملابس المصنوعة من نسيج مصرى خالص .

وقد أعلن صراحة أنه لا سبيل إلى تحقيق وجود المجتمع الفاضل إلا بالسير على الكتاب والسنة ، فيطالب أمة المسلمين بالرجوع إلى تعاليم الإسلام ، لكى يعتصموا بحبل من الله متين يقيهم شر عدوهم الغاشم ،

---

(١) راجع الإمام محمد ماضى أبو العزائم ٨١ .

(٢) راجع (موقف الإمام وثورات عصره) المرجع السابق ١٥٣ .

ويعينهم على النيل منه ودحره ، ويرى أن ذلك سيكون بالائتلاف والاتحاد فيخاطبهم قائلاً [(١)] :

ارجعوا للــدين وائتلفــوا علــى نيل ما منا العدو قــد اغتــصب
يا بنى الإســلام طالــت رقــدة فى افتراق فى اختلاف فى كرب

لاحظ كيف تتنوع أساليب الإقناع من أمــر إلى نداء إلــى اســتفهام أحياناً ... وتقــديم وتأخير بحيث يثير حميــة الناس ويستنهض الهمــم . يذكر فى البيت الأول فعل الأمر (ارجعوا ، وائتلفوا) للحــث واستنهاض النفوس للرجوع إلى الدين ، والاتحاد والاتفاق على نيل ما اغتُصــب فيقدم (منا) الجار والمجرور للقصر ، فهو يخص ما اغتصبه العــدو منــا ، وليس من غيرنا.. وجاءت (قد) للتأكيد ، واسم الموصول (ما) لدلالــة على أن ما اغتُصب منا كثير لا حصر له ولا يمكن تحديده فإن فى الاسم الموصول إبهام عدم تحديد لما اغتصبه العدو للتهويل والتكثير .

ثم ينادى بنى الإسلام فى البيت الثانى وفى ذلك اســتمالة للنفــوس وتذكيرهم بأنهم بنو الإسلام وحماته ، ثم يقول (طالت رقدة) فيشبه الغفلة والتقاعس فى الدفاع عن الحق بالرقاد على سبيل الاستعارة الأصلية وفيه كناية عن استبطاء الوقت والتحسر على بنى الإسلام الغافلين ، ثم يــصف هذا التقاعس والغفلة بأن حالهم أثناء ذلك فرقة واختلاف وكرب وفى ذلك تفصيل لما أجمل فى (رقدة) .

ويذكرهم بأن الغرب كان تابعاً لنا، يأخذ عنا العلم والمعرفة فيقول[(١)]:

---

(١) المرجع السابق ٢/٤٣٠ .

كان أهل الغــرب أتباعــاً لنــا　　　يحملون العلم عنــا فــى رهــب
فانهــضوا بالــدين خلــو فرقــة　　　فالصناعة كنزهــا فيــه الطلــب

فيبدأ بجملة خبرية فعلها ماض ناقص بدون مؤكد تنزيلاً للخبر منزلة المعلوم وقوله (اتباعاً لنا) إجمال وفى ذلك تذكير لبنى الإسلام بعظمــة حضارتهم الماضية ، وفى الشطر الثانى (يحملون العلم عنا فى رهــب) تفصيل ، للأتبــاع كيف كانوا أتباعاً ، وكأن الكلام إجابة لسؤال مــضمر فى لنفس .

ثم يطلب من بنى مصر أن ينهضوا ، بفعل الأمر الذى خرج إلــى معنى مجازى وهو الحث أن ينهضوا بالدين ، ثم يقول (خلو فرقة) وفى الأمر معنى النصح أن يبتعدوا عن الفرقة ، ويتجهوا للصناعة التى يشبهها بالكنز فيه الطلب وقد تركت الواو فى (خلو فرقة) مع جواز ذكرها فهكذا الإمام كثيراً ما يترك الواو فى حين يتطلب الكلام الوصل .

فإذا كانت الصناعة أملنا وأساس نهضتنا ، فهو يحثهم فــى قــوة أن يقوموا من رقدتهم التى طالت ، ويتركوا ما بينهم من خلافــات تــورثهم ضعفاً فيقول(٢) :

طالــت الرقــدة قومــوا قومــة　　　باتبــاع الــدين فالــشرع كتــب
طهروا الألبــاب مــن شــحنائها　　　فــاختلاف القــوم داع للعطــب

وفى قوله (طالت) كناية أخرى عن الاستبطاء وكأن المد فى اللفظ يزيد من الإشعار بطول العهد فى الرقاد ، والرقدة كما سبق بيانه استعارة

---

(١) ديوان ضياء القلوب من فضل علام الغيوب ٣٧٦/١ .
(٢) المرجع السابق ٣٨٠/١ .

أصلية بمعنى التقاعس والغفلة ، ثم يقول (قوموا قومة) وفى الأمر حث واستنهاض للهمم ، وقوله (قوموا قومةً) مفعول مطلق مؤكد للفعل ، للدلالة على أنها قومة قوية مؤثرة لا مثيل لها ، وهذه (القومة) مجملة ففصلها بقوله (باتباع الدين) أى أن قيامكم وعملكم لابد وأن يكون مؤيداً بالدين والشرع الذى شرعه الله فالدين يحثهم على العمل ، والعمل عبادة .

لذلك فهو يأتى بأسلوب أمر آخر يقول (طهروا الألباب من شحنائها) وفى ذلك نصح وإرشاد إلى أن تطهير الألباب من الشحناء سبيل للنجاح لأن الاختلاف داع (للعطب) بمعنى الانهزام والخسران على سبيل الاستعارة الأصلية ، ولفظ (العطب) أبلغ لما يحتويه من معانٍ كثيرة تدل على غاية الفشل .

ثم يخاطب " صدقى والنحاس " آنذاك قائلاً (١) :

أنت يا صدقى ويا نحاس يا نجل محمود أفيقوا من رغب
واجهوا الأمة أحيوها بما يرفع الأمة فالوقت اقترب

وذكر ضمير المتكلم (أنت) قبل النداء للتودد والتقرب ، والنداء لإثارة الانتباه وشد الأنظار إلى ما يقال ، وقوله (أفيقوا ، واجهوا ، أحيوا) كلها أفعال بغرض النصح والإرشاد . وهكذا كان الإمام واضحاً شجاعاً فى مواجهاته ، لا يتوارى خلف أسوار الكلام .

ثم هو أيضاً يوجه الخطاب إلى فرنسا وبريطانيا فىشجاعة وقوة قائلاً (٢):

يشرق الشرق باتحاد لديها يغرب الغرب فى فساد الإدارة

---

(١) المرجع السابق ٤٢٢/١ .

(٢) الجفر للإمام محمد ماضى أبو العزائم ٤٥ .

يا بريطانيا قــد ظلمــت ولكــن   شق ظلم العباد منــك المــرارة
يا فرنسا نــشرت كفــراً وزوراً   بين أهل التوحيد بــئس التجــارة
والقــوى القهــار أمهــل حتــى   أحرق الكل فى لهيب الــشرارة

والضمير فى (لديها) يعود على بلاد الشرق ، ففى الكلام إيجــاز بالحذف ، أى يشرق الشرق باتحاد بلاده ، فيبدأ بالفعل المضارع (يشرق) المعبر عما سوف يحدث فى المستقبل بمعنى (سوف) ، والإمام يتوقــع للشرق بالإشراق على سبيل الاستعارة التبعية بمعنى النهوض والاتحــاد ، والغرب يغُرب بمعنى يضعف على سبيل الاستعارة التبعية أيضاً ، وجعل ضعفه وتراجعه بسبب فــساد الإدارة . ثــم ينــادى بريطانيــا، ويقــصد البريطانيين المستعمرين والنداء بغرض الانتباه وبغرض توجيه اللوم لهــا مباشرة ثم يقول (شق ظلم العباد منك المرارة) و (شق المرارة) تعبير عامى لا يليق بالشعر ، وإن كان الشاعر يعبر به عن شدة نقمتــه علــى المستعمر ثم ينادى فرنسا أيضاً ويتهمها بأنها نشرت كفراً يريد الفساد شبهه بالكفر على سبيل الاستعارة الأصلية لأن الفساد قد يودى إلى الكفر ويشبه ما نشرته من فساد وزور بالتجارة – أيضاً – فيقول (بئس التجارة) ذماً لها . وقوله (القوى القهار أمهل حتى أحرق الكل) اعتباراً لمــا ســيكون فعبر بالماضى عما سوف يحدث فى المستقبل . أى القوى الجبار ســوف يحرق الكل بسبب ما ينشرونه من فساد .

ويخاطب الغرب الذى تمادى فى ظلمه غير مبال بوعيد الله وإنذاره فيقول[١] :

---

(١) المرجع السابق ٤٤ .

يا بنى الغرب قد ظلمتم طغيـــتم   لـــم تبـــالوا وعيـــد إنـــذاره

والنداء للتنبيه واللوم والمحاسبة ربما يراجعون أنفسهم ويتركوا الشرق لأهله ويبتعدوا . وإضمار لفظ الجلالة المضاف إلى (إنذار) لإدخال الرهبة والخوف فى قلوب الطغاة ، فإنه صاحب الضمير معلوم من السياق.

ويقول أيضاً مؤكداً دوام الحال من المحال :

قد تدور الرحىعلى الغرب تمحو   راسيات فـــى دولـــة أو عمـــارة

و (تدور الرحى) كناية عن تغير الأحوال من الكنايات التى كثر تناولها ، (قد) هنا أفاد الإمكان، و (تمحو راسيات) كناية عن نهاية الاستقرار ، وضياع القوة والهيبة أى قد يمحو ما استقر ورسى ، فإن الزمن كفيل بتغير الأحوال .

ثم يقول[١] :

آن يا قـــوم أن تلـــوح شـــموس   مشرقات لمحـــو هـــذا الظـــلام
غُلـــب الـــروم بانتقـــام وظلـــم   بضع مرات فى سالف الأعـــوام
يهلـــك الله كـــل بـــاغ وعـــاث   يمحق الله من بغـــى مـــن لئـــام
وعد ربى حـــق وربـــى غيـــور   أخلصوا سارعوا لنيـــل الـــسلام

وقوله (آن) أى حان الوقت أن تشرق الشمس ، يريد كفى خلافاً واستسلاماً ، ونداءه (يا قوم) حث لهم لإثارة حميتهم ، وقوله (أن تلوح شموس) كناية مجازية بمعنى آن أن يظهر الأبطال يحررون البلاد من الظلم ، فجعلهم كمن (يمحو الظلام) على سبيل الاستعارة المكنية من تشبيه الظلام بشئ يمكن محوه .

---

(١) الجفر ٨١ .

ثم يُذَّكــر بقــوله تعــالى : ﴿ غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الأَرْضِ ﴾ (سورة الروم: الآيتان ٢ ، ٣) فإنهم قد غلبوا والتاريخ أيضاً يحدث بذلك. وقوله (غلبت الروم بانتقام وظلم) أى بسبب انتقامهم وظلمهم فالإيجاز من خصائص الإمام فى شعره كذلك إنه يبدأ كثيراً بالفعل المضارع ، كما فى البيت الثالث (يُهلك الله) وإهلاك الله للباغى والذى يعيــث فــى الأرض فساداً قد أقره فى القرآن ، ثم يقول فى الشطر الثانى (يمحق الله) لم تعطف الجملة على سابقتها لأنها بدل منها تؤدى نفس المعنى بصياغة أخــرى ، وتكرار لفظ الجلالة للتعظيم والتبرك بذكره والتأكيد على قــدرة الله فــى إهلاك ومحق الباغين .

أى قوة كان يتحدث بها الإمام الجليل وأى سطوة يضرب بها علــى أيدى الظالمين . إنها كلمات شجاعة ظل لسانه يلهج بها ما عــاش ، لــم يتوارى مطلقاً وراء غامض المعانى ، ولنتأمله فى خطابه الصريح حيــث يصور موسولينى بــ " وحش روما " ويصف ملك إنجلترا بــ " كبير لندن " فيقول[1] :

يا وحش رومــا تــأدب	فلست كسرى وقيــصر
وطعنــةُ القهــر تــأتى	وأنت كــالثوب تنــشر
كبيــر لنــدن فاحــذر	فـــالله ربـــك أكبـــر
وطعنــة القهــر تــأتى	من حيــث لا تتــصور
الله ربــــى غيــــور	فاحــذر بغــار فتقهــر
وكيف يرضــى إلهــى	بالظلم يعلــو ويظهــر

وفى النداء (يا وحش روما تأدب) لموسولينى فيها معنى الإهانــة والسخرية ، وتشبيهه بالوحش للدلالة على بشاعة ما ارتكبه من جرائم ضد

(١) المرجع السابق ٩٢ .

الإنسانية وقوله تأدب فعل أمر بغرض الإهانة لأن موسولينى كان قد تم شنقه فالأمر غير حقيقى، وقوله (فلست كسرى وقيصر) تحقير من شأنه. وقوله فى البيت الثانى (وطعنة القهر تأتى) كناية عن ثورة الشعب المقهور ضده وإعدامه شنقاً فشبهه وهو معلق على المقصلة بهيئة الثوب ينشر على سبيل التشبيه التمثيلى محسوس بمحسوس ، وفى التشبيه مزيد تحقير له .

ثم ينادى فى البيت الثالث ملك إنجلترا ، ويصفه بكبير لندن ، وفى ذلك استهزاء به وخاصة حين يقول له بفعل الأمر (احذر) فالله ربك أكبر، والأمر للتنبيه والتوبيخ أى : إذا كنت كبيراً ومتعالياً فالله أكبر منك ، ويلمح إلى أنه سوف يصيبه ما أصاب موسولينى فيقول (وطعنة القهر تأتى من حيث لا تتصور) . فيكرر العبارة مرة ثانية للتأكيد على أن ثورة الشعب المقهور لا يستهان بها .

وفى البيت الخامس جناس بين (غيور وبغار) جناس قلب مع زيادة الألف .

وفى البيت الأخير استفهام فى قوله (كيف يرضى إلهى بالظلم) فالحال أنه لا يرضى لذلك فالاستفهام خرج عن معناه الحقيقى إلى معنى النفى واليقين إن الله لا يرضى بالظلم أن يعلو ويظهر على سبيل الاستعارة التبعية فى الفعلين بمعنى عم وانتشر .

ثم يوصى الطغاة من الملوك بالتوبة والرجوع إلى الله خشية أن ينالهم بطشه وعذابه فيقول[1] :

وصيتى فاقبلوها أنا لا أرد المقدر

(١) المرجع السابق ٩٢ .

عيـــسى أتـــى بـــسلام ونعمـــــة الله تـــــشكر
أعطيتم الملـــك فـــضلاً وفـــضل ربـــى يـــذكر
كفرتمـــــو بإلـــــه ذو العرش بالعـــدل يظهـــر
توبـــوا إليـــه أنيبـــوا فقهـــره لـــيس ينكـــر
وكـــــم أذل ظلومـــــاً لمـــا طغـــى وتجبـــر

وقوله (وصيتى) خبر لمبتدأ محذوف بمعنـــى (هـــذه وصـــيتى) والأمر (فاقبلوها) للنصح والتوجيه ، وفى قوله (أنا لا أرد المقدر) من ذكر المسند وتقديمه للتأكيد على أن المقدر نافذ ولا دخل لأحد فى رده .

ولأنهم ملوك الإفرنج فيذكرهم بعيسى نبى الله ، وفى قوله (عيـــسى أتى بسلام) تعريض بهم أنهم أتوا للبغى والعدوان ، وعيسى أتى للسلام .

وفى قوله (كفرتمو بإله) لأن كفرهم بمحمد هو كفر بإلـــه محمـــد وتأتى الجملة التالية (ذو العرش بالعدل يظهر) إذ (ذو) صفة لإله فقـــد وجب الجر (ذى) ولكن يبدو أنها جملة مفصولة و (ذو) خبـــر لمبتـــدأ محذوف تقديره (هو) لفظ الجلالة و(يظهر) خبرهـــا . ويـــأمرهم بمعنـــى النصح أن يتوبوا وينيبوا للقهار ، وتأتى (كم) دلالة على الكثرة ، للتأكيد على كثرة من أذلهم الله لظلمهم وطغيانهم وتجبرهم .

والأبيات فيها نصح وتوجيه لكل من عاند الله وكفر بدينه وبرســـوله وهى نصائح وتوجيهات صائبة لمن اعتبر وقدر الله حق قدره .

وللإمام أشعار كثيرة فى حث المسلمين على استرجاع ماضيهم الأغر يذكرهم بالعالم قبـــل الإسلام حين كان الناس فى ظلام الجهل فيقول [١] :

---

(١) ديوان ضياء القلوب ٣/٦٢٠ .

أبرزى يـا قـدرة الله العجـب　　أيقظـى للجـد أبنـاء العـرب
ذكرينـا قـدرة الله بمـا　　أنت أوليتيه مـن قبـل الطلـب
ديننـا الإسـلام أحيانـا بمـا　　فيه من علم محا عنـا الوصـب
قد محـا الإسـلام عنـا ظلمـه　　هذَّب الأنفـس والجهـل حجـب
قبل خير الرسل كان الناس فـى　　ظلمة حلـم وفـى شـر النقـب
كان أهـل الأرض عبـاداً لمـا　　يصنعون من الحجارة والخـشب

يناجى الشاعر ربه بأسلوب الأمر فى قوله (ابرزى يا قـدرة الله ، ايقظى) وحق الجملة الثانية العطف على الجملة الأولى لكن من سـمات الإمام البارزة ترك أدوات الربط فى كثير من المواقف رغم جواز ذكرها فلم يقل (وايقظى) ، والنداء والأمر للدعاء ، وفى البيـت تقـديم الجـار والمجرور (للجد) للاهتمام بالمقدم ، وقد يكون البيت بمعنى (ابرزى يا قدرة الله لكى توقظى أبناء العرب للجد) .

ثم يذكر فعل الأمر فى البيت الثانى (ذكرينـا) بغـرض الدعاء – أيضاً – والضمير يعود على قدرة الله وقوله (بما أنت أوليته مـن قبـل الطلب) فإن ذكر الضمير (أنت) للتأكيد على ما أولته من قبل أن يَطلب ، فإن عنايته سبحانه تشملنا قبل أن نطلبها .

وقوله (ديننا الإسلام أحيانا) استعارة مكنية من تشبيه الـدين بمـن يحيى ويميت، ولكى يوضح كيفية الإحياء أتى بالتفصيل بعد الإجمال فقال : (بما فيه من علم محا عنا الوصب) أى التعب .

ثم يبدأ فى البيت التالى بـ (قد) للتوكيد على أن الإسلام محا عنـا ظلمه فيلاحظ كيف جاء بفعل محا مرتين فى البيتين (محا عنا الوصب ،

محا عنا ظلمه) للتأكيد على تأثير الإسلام القوى فى النفوس، وتأثيره على الظالم .

لاحـظ السلاسـة فى النظم وكأن الإمام يتحدث ولا ينظم ، يقول : (قبل خير الرسل كان الناس فى ظلمة حلم) فيقدم شبه الجملـة الظـرف (قبل خير الرسل) للاهتمام بالمقدم فإن (الظلمة) أى الضلال كـان يـسود الناس قبل الإسلام .

ويذكر أيضاً أحوال الناس قبل الإسلام مع عبادة الأصنام ، فى البيتين التاليين تذكيراً وتنبيهاً للظالم ، أن يسترجع الماضى ليعرف أن الله قـادر على كل شئ.

فإذا بالقرآن ينير العقول ويوقظ الألباب فيقول عنه[١] :

نـور القـرآن ألبابـاً هـدى أنفساً للرشد مـن عجـم عـرب
نهـضة العـالم بـالقرآن فى آية الخيرات أسرار عجـب

وفى قوله (نور القرآن ألباباً ، وهدى أنفساً للرشد) ، اسـتعارتان مكنيتان ، من تشبيه القرآن بالنور ، ينير العقول ويهدى الأنفس ، والعقول لا تضاء وإنما تفهم وتدرك ، وقوله (هدى أنفساً للرشد) ففى ذكر الأنفس مجاز مرسل لأن المراد هدى الناس ، فجعله الهادى الذى يهدى الناس فى الطريق والأنفس أمر معنوى يتعلق بالإنسان الذى يهتدى بـالقرآن ، مـن ذكر الجزء وإرادة الكل .

---

(١) ديوان ضياء القلوب ٦٢٠/٣ .

ثم يخاطب أمة الإسلام طالباً منهم أن يجددوا ما سلبه المستعمر فيقول[١] :

جددوا يا أمة الإسلام ما جيشُ أهل الغرب منا قد سلب

وقوله (جددوا) أمر بغرض النصح ، إذ ينصح أمة الإسلام أن يجددوا ما سلبه جيش الغرب منهم ، وقدم (جيش) ، والترتيب (ما سلب منا جيش الغرب) ولكن التقديم للتأكيد على أن جيش الغرب سبب ما فيه المسلمين من ضعف وهوان .

وفى مواضع أخرى كثيرة – يستمر – فى تذكيرهم بماضيهم مبشراً بعودة مجد الإسلام من جديد فيقول[٢] :

يظهرُ الإسلام يرجِعُ مجدَهُ والبشائر بينت تلك المواهب
أبشروا فى آخر الفتح لنا آيةٌ تنبى بخير العواقب
أيقظَ الشرقُ ليالٍ مُرة تحيى أفراد الهدى بعد المتاعب

يبدأ بالفعل المضارع كعادته فالإمام مغرم بالأفعال فى بداية الأبيات، فيقول (يظهر الإسلام) بمعنى ظهر فذكر المضارع بدلاً من الماضى لتجديد ظهوره واستمراره . وكذلك الفعل (يرجع) بدون الواو وحقه الوصل لاتحاد الجملتين خبراً وإنشاءً ، وقد يكون الفعل (يظهر) مجازى بمعنى ينتشر ويسود ، ليعود لمجده فى زمن الفتوحات على سبيل الاستعارة التبعية وفى الكلام معنى التمنى . ثم يقول (والبشائر بينت تلك

---

(١) ديوان ضياء القلوب ٦٢١/٣ .
(٢) الجفر ٦٠ .

المواهب) ليؤكد أن هذه الأمنيات أو فلنقل التوقعات من الممكن أن تتحقق ويعود مجد الإسلام .

ثم يخاطب أبناء الإسلام ، بفعل الأمر (أبشروا) لإدخال المسرة على النفوس وتقديم الأمل ، ويكنى (بالفتح) عن النصر على العدو ، وقوله (لنا آية تنبى بخير العواقب) بتقديم الجار والمجرور (لنا) للتأكيد على أنه لنا دائماً آية من الله تعالى تنبئ بخير العواقب ، وهو في ذلك يكنى عن وعد الله الحق الذى وعد به المؤمنين أن ينصرهم .

(وأيقظ الشرق) استعارة مكنية من تشبيه الشرق بمن يوقظ ليالٍ مرة كناية عما سيحدث من ثورة على الظلم وتشبيه الليالى بطعام مذاقه مر استعارة مكنية والمرارة فى الطعام وليست متوفرة فى الليالى وإنما المراد الصعوبة التى يتحملها الإنسان فى الليالى القاسية والطعام المر ، وربما يكون التعبير بالماضى على اعتبار ما سيكون أى سوف (يوقظ الشرق ليالٍ) والتعبير بالماضى عن المستقبل يفيد التنبيه على تحقق وقوعه وأن ما هو للواقع كالواقع " [(١)] ، ثم شبهها بمن يحيى على سبيل الاستعارة المكنية – أيضاً – وإنما هى توقظ الناس أصحاب الهدى بعد المتاعب التى واجهتهم .

وتظهر وطنية الإمام أيضاً فى مناجاته وتأملاته فى الكون والنفس، ففى هذا الجانب من شعر الإمام تفجرت ينابيع الحب الإلهى وانطلقت ترتيلات الحمد والشكر والعرفان من الإمام أبى العزائم للمعشوق الأوحد والملك الأعظم وتنوعت موضوعاته الشعرية فالمواطنة عند الإمام تعنى

---

(١) بغيةالإيضاح: عبد المتعال الصعيدى ١٦٣، دار السعادة، القاهرة ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.

العمل من أجل رفع راية الإسلام عالية فالإسلام هو الوطن وواجب على كل مسلم الدفاع عنه وتبصير الناس بآيات الله وأنعمه وضرورة المحافظة على ما منحهم الله . يعمل باستمرار على نصحهم وإرشادهم وتبصيرهم بما وقعوا فيه من ذل ومهانة بسبب الفرقة التى فرضها عليهم المستعمر.

سخر الإمام جانباً متسعاً من شعره لتوضيح وجودية الإنسان فى هذا العالم الفانى وكيف أن الله قد اختار الإنسان لأشرف مهمة ، ووضعه فى أعلى رتبة ، ومع ذلك هو يدنى نفسه ويحقر من شأنه بمزيد من ارتكاب المعاصى ، وإغراق الجسد الفانى فى الملذات والشهوات ، ومن هذه القصائد الكثيرة نختار للتحليل البلاغى قصيدة : " الجمال العلى المصون فى أسرار الإيجاد وأنوار الإمداد " حيث يصور فيها بدء النشأة وتدرج الخلق ، وستر الغيب ، وظهور الآثار وهو يرى أن الله سبحانه وتعالى قد تنزل بالفضل والرحمة على عباده المقربين فأرشدهم إلى كشف الغيب وظهور الحق فيقول[1] :

تجليت أبدعت العوالم إيجاداً وأوليتها بالفضل جوداً وإمداداً

تنزلت يا رحمان فضلاً ورحمة فجملت بالعرفان مولاى أفراداً

وسترت غيب الغيب مجداً ورفعة وأوليت من قربتهم إرشاداً

والإضمار فى (تجليت) لأنه معلوم أنه يخاطب ربه ، فإن مبدع العوالم لا يكون إلا الله ، فهو يناجيه ، ويكنى بالبيت كله عن آيات الله فى الكون وعطاياه التى لا تحد . ويكنى بالبيت الثانى عن رحمة الله التى وسعت كل شئ وقوله (وسترت غيب الغيب مجداً ورفعة) (وغيب الغيب) من مصطلحات الصوفية فإن (غيب) معناه : ما يكشفه الله لعباده

---

(١) المرجع السابق ٦٨١/٣ .

ويكنى بـ (الغيب) عما لا يعلمه إلا الله وليظل سراً من أسرار رفعته ومجده وهيمنته على العالمين ، إنه قلب الإمام يناجى ربه ممتناً لكل هذا العطاء العظيم الذى منحه للبشر وهذه الآيات الكونية الدالة على عظمته وقدرته .

ثم يقول :

ظهورك فى الآثار برهان قدرة ... دلائل توحيد صدوراً وإيرادا
لتعبد أبدعت العوالم كلها ... لتعرف من بدء ترى الآبادا
من البدء فى فجر انفجار حقائق ... ألاح التجلى بدء زاك معادا

وكما سبق القول فإن صعوبة فهم معانى شعر الإمام يعود فى الغالب إلى بناء لغته وتراكيبها ، فهو يقدم فى الكلام ويوجز بحيث يحتاج فهم المعنى إلى تركيز وإعمال للفكر .. ففى البيت الأول يرى أن ظهور الله سبحانه وتعالى فى آثاره التى يراها العبد فى الكون وفى نفسه برهان ودليل على قدرته واقتداره ، وأن فى هذه الآثار دلائل واضحة على توحيده لذلك يقدم (فى الآثار) للتأكيد عليها والتنبيه على كونها دلائل قدرة الله فيؤكد على ذلك فى الشطر الثانى وبدون وصل الواو رغم عطف الكلام على ما سبق وقوله " صدوراً وإيراداً " كناية عن الأخذ والعطاء.

وقوله فى البيت الثانى إنك يا الله لكى يعبدك الخلق ، أبدعت فى خلق العوالم كلها ، فواضح الإيجاز بالقصر فى عبارة (لتعبد أبدعت العوالم كلها) بتقديم الجار والمجرور لأهميته ولبيان أن عبادة الله سبب فى خلق هذا الكون ، ويجانس بين (لتعبد وأبدعت) جناس قلب مع زيادة (اللام) و (الهمزة) .

ثم يقول :

وأنــت معيــد مبــدئ لمظـــاهر　　تُليح معانى الوصف منــك ودادا
من الترب من ماء ونار ومن هوا　　تجــدد غيبــاً يمحــق الإلحـــادا
تُرِىِ صورة الرحمن للعالم العلى　　وتُشْهِدُ أهل الحب فيــك مــرادا

وذكر الضمير (أنت) لأن المقام مقام خطاب ومناجاة لله ســبحانه وتعالى لتقرير حقيقة أنه الله هو معيد الخلق وهو المبــدئ وفيــه معنــى القصر، وفى البيت الثانى يجمع بين (التراب ، الماء ، النار ، الهــواء) وقد استوفى الجمع للمواد التى خلق منها جميع الجن والإنــس والكــون . وقوله (تجدد غيباً يمحق الإلحادا) استعارة مكنيــة فى (يمحق) أى إن هذه المواد التى خلق منها الكون والأحياء ، دليل يــرد الملحــد ويمحــق اعتقاده الخاطئ ، فالدليل على وحدانية الله واضح وفى البيــت الثالــث ، يخاطــب الله سبحانه وتعــالى خــطاب مناجاة ، فيأتى بالفعــل المضارع (تُرِى ، وتشهد) للتدليل على أن الإنسان المؤمن حق الإيمان يرى الله فى آياته ومخلوقاته .

ويقول عن خلق الإنسان :

تُلبيــــه إحـــساناً وتوليــــه منـــــة   وترفعـــه قـــدراً لـــديك جهـــادا
لقد جمع الأضداد فيــه فحيــرت   حقـــائق العــــالين والأفـــرادا
وكيف وفى قلب المراد حقــائق   تحيــر ألبابـــاً وتـــسكر أوتـــادا
لقد ضاق هذا الكون عن علم سره   وقد جمــل العـــالين ثـــم أفـــادا

والضمير فى (تلبية) للإنسان ، والإضمار لدلالة السياق والشطر الثانى كناية عن رفع قدر المجاهد فى سبيل الله ، لاحظ عطف الأفعال المتوالية (تلبيه ، توليه ، ترفعه) للاشتراك فى الحكم الإعرابى .

يشير إلى أن الله سبحانه وتعالى أولى عبده نعمة وإحساناً ورفـــع قدره بجهاده المستمر لنيل مرضاة الله . ثم يوضح فى البيت الثانى كيف أن الإنسان قد خلقه الله جامعاً لكل الأضداد ، ففيه الخير والشر ، والقبح والجمال ، إلى آخر هذه الأضداد التى تقوم عليها الحياة ، ويترتب عليها الوجود البشرى فاستعمل التوكيد بـــ (لقد) ، فمن صـــفات البـــشرية وجود الشئ وضده والخبر من الضرب الطلبى للتأكيد على هذه الحقيقة التى تحير العقول وتقف عندها الأفهام ، لذلك فقد ضاق الكـــون عـــن معرفة سر ذلك ثم يسأل مستفهماً (كيف وفى قلب المراد حقائق تحيـــر ألباباً) والغرض من الاستفهام إثارة الفكر والرضوخ لحكمة الله فـــى خلقه على الأضداد ، ثم يشبه الكون بمن يضيق عن علم سر الخلـــق ، والعبارة كناية عن الحيرة . وهو يعود فيؤكد أهمية خلق الإنسان فى هذا الكون فيقول :

لــــه خلـــق الله العـــوالم كلهـــا وللذات صاغ الفـــرد ثـــم أفـــادا
عجيب يرى فوق التراب وقـــدره بأعين بل مـــن فـــوقهم إيجـــادا

قدم الجار والمجرور (له) للقصر ، والضمير يعود على الإنسان أى أن الله خلق له العوالم كلها ، وصاغ الجسد لتكون المظهر الخارجى للذات ، فقدم الجار والمجرور (للذات) أيضاً على سبيل القصر بالتقديم فى كل فأكد بهذا الأسلوب على حكمة الله فى خلق الكون .

ثم يخاطب الإنسان قائلاً :

أيهـــا الإنـــسان تـــشغلك الـــدنا ومن دونك الأكوان قـــدرك زادا

وقوله " أيها " نداء وتنبيه للإنسان الذى ينشغل بأمور الدنيا الدنية فى حين رفع الله قدره وزاده ، ويلحظ غموض المعنى فى الشطر الثانى بسبب التقديم والتأخير ، وهو مثال من أمثلة كثيرة وردت فـــى شـــعر الإمام فإن التقديم والتأخير وترك الربط بين الجمل يحـــدث غموضـــاً وتعقيداً فى المعنى ، والتعقيد يعنى أنه لا يكون الكلام ظاهر الدلالة على المراد به ، ففى المثال تعقيد(١) لفظى يرجع إلى اختلال فى الـــنظم ولا يدرى السامع كيف يتوصل منه إلى معناه .

---

(١) راجع الإيضاح ٦ .

ثم يتوجه إلى الله بالدعاء قائلاً :

أعنا على شكر الأيادى وعمنـــا		بعفوك حتـــى نـــدرك الأجـــدادا

والأمر خرج إلى معنى الدعاء والرجاء أن يعين الله الـــصالحين على شكر نعمه ويرجو من الله العفو ، وإدراك الأجداد كناية عن لقـــاء النبيين والصالحين يوم القيامة .

وقد استغرق نظم الإمام فى ديوانه " ضياء القلـــوب " جانبـــاً ليس قليلاً من شعر التأملات التى جاءت مـــرآة صـــادقة لمفهومـــه الصوفى والتى جاءت صورة مشرفة لكل من طال بـــه الـــشوق وأراد الوصال والقرب .

ومن الواضح لمن يطالع شعره أن له رؤية تجديدية فى الصياغة والأفكار والأغراض الشعرية والمعانى ، ولو أن " العقاد " رحمه الله قد اطلع على ديوان الإمام لعلم أن دعواه للتجديد فى الصياغة ونظم الكلام شعراً قد طبقها الإمام – من قبل – فىجزء كبير من شعره ، ودعـــوة العقاد للتجديد تتلخص فى ضرورة أن يكون الشعر ما تشعر به وتحس ، لا ما تراه فتصفه ، كما يجب على الشاعر أن ينظر فى جوهر الأشياء ويصف شعوره وإحساسه تجاهها ولا يصف لنا مظاهرها ، وأشكالها ، فالظاهر شئ يراه الجميع ، لكن شعورك نحو هذا الظاهر لا يعبر عنه إلا أنت ، وقد حاول العقاد ونجح إلى حد كبير فى تطبيق هذه النظريـــة على شعره فأخرج لنا شعراً الكثير منه جديد فى الـــصياغة والمنحـــى والاتجاه ، فهو إذا شاهد البحر لا يصف لك شكله ، من أمواج تتـــدفق

واتساع وعمق وزرقة ، وإنما يصف لنا شعوره عند رؤيته وتأملـــه ، وربما جعله مادة لأفكار وخواطر تتصارع فى نفسه " (١) .

هكذا فعل الإمام أبو العزائم ولكن على طريقة أهل العـــارفين ، وبأسلوب من تكشفت له الأسرار وانجلت الغيوب عن عقله وروحـــه ، فكان نظمه نظم النفس التى ترى الآثار الكونية والآيات العجيبـــة فـــى الحياة ، فتتأثر بمشاهدتها فتعبر عن انطباع هذه الآثار فى ذاتها ، فلـــه رضى الله عنه جانب ليس بالقليل من نظمه ، يخاطب وينـــاجى تلـــك الآثار، لا يصفها ولكن يجعلها مادة لوصف أحاسيسه ومشاعره تجـــاه خالقه عـــز وجل .

يقف شادياً مغنياً بعظمة القادر الوهاب، ينظر إلى السماء والشمس والقمر والبحر والنجوم والأرض والنسيم وغير ذلك من مظاهر الطبيعة ينظر لها مسبحاً مرتلاً بأصدق آيات العرفان للقادر العلى .

إن الشعراء إذا وقفوا أمام مشاهد الطبيعة ومظاهرهـــا وصـــفوا شكلها ولونها وحركتها ويعبرون عن معانى خاصة بهم ، وقـــد نلمـــح أحياناً بعض المعانى الصوفية التى ترد عفواً فى شعرهم ، أما الإمام فله وقفاته الثابتة على مبدأ ، وقفات فريدة ، هى وقفات العبد العارف الذى يبغى الوصول ، وقفات العبد المدرك لحقائق الأشياء فتجلت له عظمـــة الخلق وقدرة الخالق ، رآهاه بنور عقله وهداه إليها قلبـــه ، وشـــاهدتها روحه ، هكذا وقف الإمام وقفات طويلة تسبح روحه من نور إلى نور ، ليهدى إلينا تراثاً رائقاً بليلاً من النظم والنثر ، سيظل مرجعاً للراجحين

---

(١) راجع عبقرية العقاد : د. عبد الفتاح الديرى ٢٢٢ وما بعدها ١٩٨١ .

ذوى الألباب المفكرة والنفوس التى تبغى الوصول إلى الرضى والسماح من ربها .

والإمام لا يكتفى بمناجاة ومخاطبة الآثار الطبيعية فى الكون بـــل نراه يصف آثار الإنسان على الأرض كيف أنه أحيا الصحارى بالأبنية والعمران ؟ ودائماً أبداً يتحدث عن شهود جلال الله فى آياتـــه وأنعمـــه فيلهج لسانه بالدعاء والمناجاة أن يمن الله عليه باستمرار الـــشكر لـــه ودوام الذكر والابتهال إليه .

يرى الله فى كل مظاهره ، يراه فى تنقل شـــمس الـــضحى فـــى بروجها ، ويراه فى أمواج البحر ، وهى تتلاطم ، وعباب البحر وهـــو يمخر ، يراه فى الغروب والشروق ، يراه فى آثار الإنسان حيث العيش فى الأرض ليعيش فيها وراح يبنى ويعمر فى الكون لتستمر الحياة .

وتنطق الآثار بما فيها من درر الأسرار فتنطلق الألحان والتسابيح، تبين وتظهر الغيب آيات ومعانٍ ، ليرى العبد الصالح إتقان صنع الله ثم شكلاً وانتساقاً ، فيتحير العقل وتسبح الروح بمشهد التجريد ، فتستغرق الروح حال الحضور ، وتسرع للوصول ، وبإشراقة آيات الله فى الآثار أشرقت النفس الضالة ، وانجلى للروح كل غيب مصون فصار مشاهداً بعين اليقين حال القرب والمثول .

بهذه المعانى السامية تغنى الإمام أبو العزائم شعراً ونظم أروع ما نظم فى آيات الله وعجائب صنعه ، فيقول[١] :

أيهـــا الآثـــار حيـــرت العقـــول فيك آى سارعت بـــى للوصـــول

---

(١) ديوان ضياء القلوب ٥٤٣/٢ .

أيهـا النبـت ويـا نخـل ويـا   أيها الزهر النضير بـك القبـول
فيـك آى الله جـل جلالـه   أشرقت تنبى بقربـى والمثـول
جئت فى الثغـر لأستـشفى بـه   لاح لى الغيب محا ظل الحلـول
كنت يا روض صحارى قاحلـة   صرت حياً بـالزهور وبـالقبول
أظهـر الحـى الحيـاة جليـة   فيك للأبـصار نـور والعقـول

ينادى الآثار من نبت ونخل وزهر يبهر الأبصار ويحير العقـول فهى آيات كلما أمعن فيها النظر سارعت به للوصول والقرب ثم المثول وكلها من النداء الذى خرج عن معناه الحقيقى إلى الابتهال والتأمل فى خلق الله ونداء مظاهر الطبيعة من الأساليب التى يكثر منهـا الـشاعر الحالم الذى يلجأ إلى الطبيعة طلباً أن تشاركه مـشاعره وأحاسيـسه ، وقوله " وجئت فى الثغر " يقصد ثغر الإسكندرية حيث يذكر هو ذلـك يطلب الاستشفاء من الله ويكنى بذلك عن حالة الصفاء والنقـاء التـى يتوصل إليها الإنسان بتوجهه إلى الله . وهنـاك لاح له الغيـب فانمحى " ظل الحلول " وهو كناية عن كل ظل متحول متغير ، ثم يظهر آثـار الإنسان وأياديه فى زراعة الصحراء وجعلها رياضاً، والنداء (ياروض) لشد الانتباه إلى ما كانت عليه الصحراء وما آلت إليه ، وقوله (أظهر الحى الحياة) كناية مجازية عن إعمار الإنسان للأرض وفـى البيـت الأخير إيجازاً بالحذف ، إذ قال (والعقول) أى (وفيك للعقول نـور) ولكن دل على ذلك السياق .

ثم يقول(١) :

(١) ديوان ضياء القلوب ٥٦٣ .

ألیحی یا آثار ما فیك للقلب / لتشرق آیات تشیر إلى الرب
فإنك یا آثار ألواح آیة / لأهل الصفا أهل الیقین بلا ریب
فقد أظهر الرحمن فیك جماله / جلیاً لأهل الحب من غیر ماشوب
یراكِ الفتى المحبوب معراج قربه / فیشهد فیك النور ینبئ بالجذب
نعم أنت حانٌ للطهور یدبرها / على الروح رب العرش فى حظوة القرب

وقوله " ألیحی " أى أظهرى وأبینى یا آثار ما فیك من آیات تشیر إلى الخالق الأعظم والأمر بغرض إظهار آیات الله فى آثاره وإشراق الآیات ظهورها فى الآثار على سبیل الاستعارة التبعیة فى الفعل ، وفى البیت الثانى یرى أن هذه الآثار هى دلائل لآیات الله یدركها أهل الصفا أهل الیقین بلا شك فى قدرته تعالى ، التى أظهرت الجمال فى تلك الآثار فإن مخاطبة الآثار ونداءها على سبیل المناجاة، وقوله (ألواح آیة) كنایة عن أنها دلائل قدرة ، وصور لآیات الله فى خلقه جعلت الكون متحفاً كبیراً لتأملات الصالحین أهل الحب الذین یرون الله بعقولهم فى آثاره ، رؤیة واضحة لا تشوبها شائبة أو تسترها غیوم . وقوله (فقد أظهر الرحمن فیك جماله) استعمل (فقد) للتقریر مع أن المعنى لا یحتاج توكیداً وتقریراً ، ولكن ذلك من فرط حماسة الإمام وشعوره بعظمة نعمة الخالق على الخلق . وقوله من (غیر ما شوب) أى من غیر شائبة تخفیه كنایة عن أنه جمال ظاهر جلى .

وفى البیت الرابع یرى الفتى المحبوب عند ربه فى هذه الآثار معراج قربه وسبیل رشده فیشهد فیها النور ینبئه بالجذب والفتى المحبوب یكنى به عن كل عارف بالله صالح صادق فى حبه له (ویراكِ)

الضمير للآثار يشبهها بمعراج قربه عند الله لأن من يشهد مظاهر آيات الله فى الكون يعلم أن الله قريب منه ، فهى (حان) كناية عن أنها مكان ومحل " للطهور حيث يشبه هذه الآثار بالحان لا يدخلها المريد للسكر الحقيقى والعربدة ، وإنما يدخلها للطهر وصفاء النفس وجلاء الشك من كل علائق المادة ليحظى بالقرب ، هكذا تتمثل له الآثار ، فالكون معبد كبير يسبح فيه الصوفى ويتعبد لخالقه الذى أبدع خلق كل شئ وسبحان من أبدع خلقه .

وهنا يحضرنى قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ (آل عمران : آية ١٩١) .

وقوله تعالى : ﴿ يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (سورة النحل : آية ١١) .

وقوله تعالى : ﴿ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ (الأنعام : آية ٦٥) .

وغير ذلك من الآيات الكثير التى جاءت تدعو إلى التفكير والتبصير والتبصر بآيات الله وأنعمه على الخلق أجمعين .

إن العقل الذى يخاطبه الله فى هذه الآيات هو العقل الذى يعصمه الضمير ، ويدرك الحقائق ويميز بين الأمور ، ويوازن بين الأضداد ، والمتناقضات ، ويبصر ويتدبر ويحسن الإدكار والرواية ، وإنه العقل الذى يقابله الجمود والعنت والضلال ، هكذا يرى العبد الصالح أهمية التفكير كوسيلة للوصول إلى الهداية والمكاشفة ومعرفة سر الله فى آياته

ومعجزات خلقه وهكذا تجد الإمام ، فلطالما دعا إلى النظـــر والتأمـــل والتفكير ، وإنها لوسيلة كل العارفين ، وطريقة كل السالكين المتوجهين إلى قبلة النور والهداية .. فصدق الإمام حين قال مناجياً ربه متأثراً بما جاء فى القرآن الكريم(١) :

أراك فى كل شئ ظاهراً حـــولى | تخفى المبانى بما توليه من طول
فأعشق الآى والأوصاف ظاهرة | تجلى لروحى بلا درك ولا ظـــل

فأتذكر قوله تعالى : ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ (سورة البقرة: آية ١١٥) فالإمام كانت تمر عليه لحظات متكررة متتابعة من الصفاء الروحى وشفافية النفس، فى خلواته وتوجهاته، حيث السمو والصعود إلى أسمى المعانى ، وأجمل الأنوار ، فكان يرى الله فى بديع صنعه وجميل خلقه، فتختفى كل المبانى ويكنى بها عن المادات والمحسوسات، لتستشف روحه نور الله ، والطول هو القدرة العظيمة ، فالآى والأوصاف دليـــل وجوده تظهره بلا درك أى : بلا ظلمة وبلا ظل يحجبه .

والإمام فى تأملاته الكونية يتتبع الحركات ، فإذا أشرقت الشمس يخاطبها قائلاً (٢) :

أيها الشمس هل أضأت القلوبـــا | أم رأيـــت جمالـــه المحبوبـــا
إن شمس القلوب شـــمس ترينـــا | غيب أعلـــى تنـــاول المـــشروبا

---

(١) ديوان ضياء القلوب ٥٥٩/٢ .
(٢) ديوان ضياء القلوب ٦٣٧/٢ .

ينادى الشمس نداء مناجاة ويسألها سؤال تجاهل العارف عما فى نفسه من عاطفة جياشة تفيض حباً فى نور الله ، وفى الاستفهام معنى التمنى .

وقوله " تناول المشروبا " يعود الضمير فى الفعل على شمس القلوب ، كناية عن تشبع القلوب من نور التجلى ، فكأنها تناولها المشروب ويقصد به نور التجلى .. فإذا كانت الشمس الحقيقية تشرق للناس ليروا فثم شمس أخرى مجازية تضئ القلوب تريها الغيب المصون وهو ما يكنى عنه بالتطلع إلى آيات الله فى الكون فترتوى القلوب بعد انجلاء الغيوب ، وظهور الحقيقة ووضوح الرؤية .

وفى موضع آخر يطلب من الشمس أن تشرق وتسفر عن وجهها، وسواء أشرقت أو غربت فإن شموس الخالق دائمة تضئ القلوب بنورها ولا تغرب فيقول(١) :

أسفرى شمس النهار وأشرقى   لم تغب عنا شموس الخالق

فيرى أن شمس النهار تشرق وتغيب أما شموس الخالق وأنواره فهى لا تغيب فالله نور السموات والأرض ، يملأ الكيان ، ويشرق فى الأرواح والأبدان . وفعل الأمر (أسفرى) جاء بغرض المناجاة وتشبيه آيات الله فى الكون بالشموس دلالة على وضوحها لمن ينظر ويتأمل .

فإذا غابت الشمس يقول(٢) :

تغرب الشمس شمس هذا الزمان   شمس روحى قد أشرقت بالحنان

---

(١) ديوان ضياء القلوب ٢/٦٦٦ .

(٢) المرجع السابق ٢/٦٨٩ .

تغرب الشمس إذا تغشاها ليل   شمس حق اليقين نور القرآن
لم تغب لحظة لأن ضياها   نور هاد ومنعم رحمان

فالشمس الأولى حقيقية والشمس فى الشطر الثانى (شمس روحى) مجازيه من تشبيه ما يعمر قلبه من الإيمان واليقين بشمس الروح ، وهذه الشمس لا تغرب ، فإذا غربت شمس هذا الزمان ، فإن شمس الروح تشرق دائماً لأنها عامرة بالحب والعرفان ، فهى تشرق بالحنان ، فإن ضياء شمس الحق واليقين التى تضئ بهدى من القرآن لم تغب لحظة فهى دائمة الإشراق فى الروح المؤمنة لأنها تستمد ضياها من نور الهادى المنعم الرحمن فنلاحظ كيف يتوسل الإمام بالرمز والكناية والمجاز لإثبات معانيه وأفكاره التى يطرحها ، هكذا تأتى لغته باستمرار مصاغة بطريقة مخصوصة .

ويخاطب البحر وقد كان كثير الوقوف أمامه يتأمل ملكوت الله وآيات صنعه فيقول[1] :

أيها البحر فيك ماء وملح   بحر غيب الأسماءيبدو مهيبا
بحر علم ينير قلبى وروحى   قد شهدنا جماله المكتوبا

ينادى البحر بغرض المناجاة وإخراج ما فى نفسه من معانٍ يريد التعبير عنها .

---

(١) ديوان ضياء القلوب ٣٤٤/١ .

فيشبه العلم بالبحر بجامع الاتساع فى كل ثم يجعلــه ينيــر قلبــه وروحه على سبيل الاستعارة المكنية والجمال المكتوب كناية عن مشاهد الكون المرئية .

يقول : أنت يا بحر فيك الماء والملح فأنت مخلوق من المادة التى تتحول وتفنى ، رغم اتساعك وعمقك ، أما بحر غيب الأسماء ففيه هيبة لأنه بحر من العلم ينير قلبى وروحى ، وقد شهدت جماله المكتوب على أثر من الآثار التى أشاهدها .

ثم ينظر إلى خسوف الشمس فيقول[١] :

هذا الخسوف أرانــا أن خالقنــا   منزه ونرى الأكــوان أحجــارا
الله نور السماء والأرض مبدعنا   نرى السموات والأجواء أســوارا
يضئ ما شاء يمحو ما يشا عدلاً   ويخسف الشمس يمحو النجم أقمارا

وقوله (هذا الخسوف) للتعيين وقوله (السموات والأرض أسواراً) يكنى بذلك عن وجوده فى الحياة الفانية التىتعتبر كالأســوار ، التــى يتمنى أن يعبرها إلى الحياة الأبدية ، وفى البيت الأخير يريد أن يؤكــد قدرة الله فى معنى قوله (كن فيكون) .

فإن خسوف الشمس يرينا أن الخالق منزه عن التحول والتغيــر ، فالشمس تتحول وتتغير من شروق إلى غروب إلى خسوف ، والأكوان كلها أحجار كناية عن تفاهة الكون وضآلته أمام عظمة الله ، مهما علا فيها البناء فإنه محال إلى زوال ، لكن الله نور السموات والأرض محيط

---

(١) المرجع السابق ٣٧٧/١ .

بكل الأشياء ، يبدع فى خلقه ، فيشبه السموات والأجواء بالأسوار تحجب عنا الحقائق ، والله قادر يضئ بنوره ما يشاء، ويمحو ما يشاء بنظام مقدر فهو العادل، ولنتذكر هنا قوله تعالى : ﴿ يعز من يشاء ويذل من يشاء ﴾ وقوله : ﴿ أَلاَ لَهُ الخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ العَالَمِينَ ﴾ (سورة الأعراف : آية ٥٤) وقوله : ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ ﴾ (سورة البقرة : آية ٢٥٥) وقوله : ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾ (سورة البقرة : آية ٢٥٥) .

ثم ينظر الإمام إلى الإنسان فيقول[١] :

ويك يا إنسان فيك حقائق — أشهدت روحىضيا الرب المجيب
شاهدت أملاكه أنواره — فيك يا إنسان فاشهدها تنيب
كيف تحجب عن ضياء فيك من — مبدع الأكوان ذا أمر عجيب

وهذه الأبيات تذكرنا بقوله تعالى : ﴿ أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقّ﴾ (سورة الروم:آية ٨) وقوله تعالى : ﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ (سورة الأعراف : آية ١٨٥) .

وقول الإمام : " ويك يا إنسان " أسلوب تعجب أى ماذا دهاك يا إنسان لا تعرف ما فيك من حقائق ، فإن هذه الحقائق قد أشهدت روحى

---

(١) ديوان ضياء القلوب ٥٦٢/٢ .

ضيا الرب المجيب ، فيتعجب من ذلك الإنسان وجهله بحقيقة أمره فإنه يشاهد بروحه وعقله دائماً ضياء ربه فى مخلوقاتــه ، شــاهد أملاكــه وأنواره فى الإنسان ، ولذلك يطلب منه على سبيل النصح أن ينظر إلى خلقه لينيب إلى ربه ، ثم يتساءل متعجباً كيف يتــرك الإنــسان نفــسه محجوباً غافلاً عن ضياء ونعم فيه ، لا تحتاج جهداً لمعرلفتهــا ولكنــه غافل عنها .

والخطاب بصيغة الأمر دائم فى مشاهدات الإمام وتأملاته فالنداء الذى يراد به التنبيه غالباً ما يتبعه أمر ، والإمام ينظر فيما حوله يتأمل الملكوت كما أمره ربه فيرى شروق الشمس على شاطئ البحر وكانت السماء ملبدة بالغيوم فيقول(١) :

انظروا فوق الرؤوس تروا غماما ... يحمل الأرزاق يوليهــا الأنامــا
تنظرون البحــر يعلــو موجــه ... يحمل الخيرات قد يجلــى أمامــا
تحتنــا رمــل فــوقى ســما ... تلكمو الآيــات تــسعرنا غرامــا

يبدأ بفعل الأمر " انظروا " على سبيل الالتماس حيث التمس مــن الناس أن ينظروا للغمام يحمل المطر الذى هو سبب الأرزاق ، والخير، وقوله (فوق الرؤوس) تعريض بمن ينظر دائماً تحت أقدامه فلا يتطلع بنظره فيرى آيات الله فى الكون ، كذلك يطلب منهم أن ينظــروا إلــى البحر الذى يعلو موجه يحمل الخيرات لهم ، ثم يقول : تحتنــا رمــل وفوقى السماء كل ذلك يدعو للتسبيح والابتهال إلى الله لأنه أنعم علينــا بكل هذه النعم ، فهى آيات تسعرنا وتشعل قلوبنا ناراً – علــى ســبيل

(١) ديوان ضياء القلوب ٧١٠/٣ .

الاستعارة المكنية – بمعنى التحرق شوقاً للمنعم ذو الفضل العظيم ، حباً وعرفاناً بفضله وكرمه، وهى آيات تؤكد وجوديته وتفرده لذلك يقول[١]:

من رأى آيـــات ربـــى يرتقـــى　　للجمال الصرف يسبقه المـــداما
بعد رشف الراح روحى شاهدت　　وجهه يتلــو التحيـــة والـــسلاما
طاب سكرى بعد عشقى خلنـــى　　يا عذولى قد كرهت إذن ملامـــا
من رأى نور التجلـــى لا يـــرى　　غير وجه الله يحرمـــه المنامـــا
كيف أصبر بعد رؤيـــة وجهـــه　　دع ملامى قد أرى اللوم حرامـــا
هـــذه الآيـــات لاحـــت جهـــرة　　ترفـــع القـــدر وتعلينـــى مقامـــا

والحق إنه شعور كل إنسان مؤمن مسلم قد منحه الله قلباً يحـــس وعقلاً يفكر ويتدبر ، فالظواهر الطبيعية فى الكون من غمـــام ومطـــر وبحر يموج وحياة تتقلب وتتغير لهى برهان حقيقى على وجـــود الله ، فيبدأ البيت الأول بـــ (من) الشرطية ، وجملة الشرط تساعد فى إبراز المعنى الذى يريده وتحقق الجواب عند تحقق فعل الشرط ، ففى جملـــة الشرط غالباً دعوة للانتباه إلى الفعل الذى يترتب عليه الجواب ، وقوله: " يسقيه المدام " فهو من المجازات على سبيل الكناية المجازية بمعنـــى أنه يمتلئ حباً وعرفاناً وتتشبع روحه بنور المعرفة التى تهديه إلى ذكر الله وشكره ، " فالمدام " معناها " الخمر " فليس المراد الخمـــر علـــى حقيقتها وإنما هى من رموز الصوفية ، كذلك " رشف الراح " أى شرب الخمر ، فالخمر الإلهية ليست كالخمر فى شئ وإنما هى مزيـــد حـــب وامتثال وتوجه لصاحب الآيات رب العرش العظيم، فإن رشف الـــراح يمثل درجة من الوصول إلى المعرفة والاستمتاع برؤية الجمال الصرف

---

(١) ديوان ضياء القلوب ٣/٧١٢ .

المنزه عن كل غرض ، فإن رؤية آيات الله فى خلقه تجعل الإنسان المتأمل يرتقى فى شعوره وإحساسه ليرى الجمال الصرف . فكأنه بمتعة المشاهدة هذه قد شرب المدام الطهور .

وهذه حال الصوفى الذى يسبح بحمد الله فكأنه فى سكرة العشق مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ فإذا كان كل جماد وكل حى يسبح خالقه فما بالك يا إنسان .. تنطلق فى غرورك غير مبال .. فى حين ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ (سورة الحديد : آية ١) فيقول[١] :

أرى ماء رمالا ، فوق رأسى ... غماماً ينزل الأرزاق حولى
تسبح كلها ربى تعالى ... بالسنة أبينها بقولى

أى أرى (ماءً ورمالاً) : (وفوق رأسى غماماً) لكنه ترك الواو على عادته ، والأرزاق مجاز عقلى فهو الذى ينزل المطر ، الذى منه تأتىالأرزاق ، فجعل الغمام ينزل الأرزاق باعتبار ما سيكون من زرع يعود بالرزق على صاحبه .

فآى الله حولك تشهد بنور وجهه الكريم .

وينظر إلى تُرب الأرض فيخاطبه قائلاً [٢] :

أيا ترب أنت الكنز فيك عجائب ... تدل على سر القدير على الطول
عجبت وحولى النبت أنواع كثيرة ... من الترب فيها القوت بالخير والنيل
نعم أنت مرآة لآيات ربنا ... تبيح لنا الأسرار بالجهد لا القول

(١) ديوان ضياء القلوب ٥٠٠ .
(٢) ديوان ضياء القلوب ٧٤٠ .

فهو متأثر بقوله تعالى : ﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ (النحل : ١٣) .

ينادى الترب بغرض التنبيه على نعم الله وعجائبه .

فالتراب شبهه بالكنز فيه غرائب المعادن ، ويخرج الله منه بقدرته النبات مختلف ألوانه ، ثم يشبهه بالمرآة التى تنجلى فيها آيات ربنا وهذه الآيات تظهر للإنسان بالجهد والتعب والمثابرة ، فإخراج النبات يحتاج جهداً منه ، وقوله (بالجهد لا القول) من قصر العطــف بـــــ (لا) قصر ما يباح للإنسان أن يعرفه على جهده فلن يصل إلى ما يريد مـــن كنوز مخبوءة فى الأرض إلا بالجهد وليس بالقول .

ثم يقول عن تُرب الأرض[١] :

خُلقت وضيعاً ، والمعانى جميعها بها رفعت كل الحقــائق بالظــل
كذا فليكن من رام يرفـــع للعـــلا لتُجلى به الأوصاف من غير ما فصل

ومخاطبة الترب من إنزاله منزلة العاقل الذى يصلح التخاطب معه.

فتُرب الأرض برغم وضاعته ، أخرج لنا من أســـراره آيـــات ، تؤكد أهميته ، وتعلى من قدره كذلك يجب على كل إنسان يريد أن يعلى من شأن نفسه أن يترفع عن الدنايا ويرتفع بنفسه إلى العـــلا ، بالجهـــد والمثابرة على العبادة ورياضة النفس لتُجلى به الأوصاف وتتكشف له الحقائق صريحة واضحة .

---

(١) المرجع السابق ٧٤١ .

والإمام دائماً يجد فى كل مظهر من مظاهر الحياة مدعاة للتفكير والتذكر للوصول إلى المعرفة التى تضئ له نور الحقيقة ساطعاً بلا حجاب يسترها من شوائب وعلائق المادة .

فهو فى حال الرياضة النفسية تتجلى له الأسرار ، حتى عند سماعه لآلة " البيانو " فإن نغماتها العذبة لا تنسيه سياحته الروحية مع الله ، فيقول(١) :

أضربى نغمات أوتار القلوب　　　" فالبيانو " قد ألاح لنا غيوب
أسمعى أرواحنا لحناً به　　　قد تطيب لدى الصفا منه القلوب
نغمة تشجى تذكرت الهوى　　　فترى سر الحقائق والغيوب
أسمعينى نغمة الروح التى　　　شاهدت فى البدء أنوار الحبيب

والأمر فى الأبيات على سبيل المناجاة والتعبير عن ترنمه وشجوه، فالنغمات تثير الحنين والشوق ، فتطيب الأرواح وتصفو القلوب ، ويتذكر بألحان البيان لحن أسرار القرآن فيقول(٢) :

لحنى أوتار آيات البيان　　　بالإشارة كى أنبأ بالتهان
لحنى غيباً مصوناً بينى　　　بالإشارة لحن أسرار القرآن

والبيان يقصد به الشعر ، فيشبه نظمه للشعر بنظم الألحان ، و (الغيب المصون) من رموز الصوفية والإمام فى تأملاته المستمرة كانت تأتى عليه لحظات لا يرى فيها شيئاً حيث تتلاشى جميع الآثار فلا

---

(١) ديوان ضياء القلوب ٣/٧٨٠ .
(٢) ديوان ضياء القلوب ٣/٧٨٨ .

يرى بعينه بل يرى بروحه وعقله نور وجهه الكريم فيقول وهو على شاطئ البحر[١] :

وى عجيب قد ستر النور بحرا غيب البر نوره التبان
صوب وجهى أنوار وجه على بالتجلى قد أشرقت والحنان

وصيغة (وى عجيب) تكررت كثيراً فى شعره بمعنى يا للعجب، وكما سبق وأشرنا أن صعوبة فهم المعانى تتأتى من تراكيب النظم فى شعره ، فإنه يتعجب من هذه الحالة التى تنتابه ساعة الصفا فيستر النور الذى يشع فى كيانه جميع الآثار من بحر وبر ، ولا يرى سوى نور وجه الله يتجلى فى روحه .

والإمام حين يذكر (الفناء) يقصد به فناء الشهوات أو فناء الأنانية وحلول المحبة فى القلب والروح فيقول[٢] :

صِحْتُ ويحى قد كنت قبل فنائى فى ظلام الإبعاد والامتهان
نفخة القدس جملتنى بنور ستر الطين مظهر الحنان
صرت غيباً عن عين رأسىونفسى أشرق الغيب لى بعين العيان

فالمقصود بقوله : " قبل فنائى " كناية عن قبل فناء الشهوات فى ذات العارف ، ويقصد (بالظلام) استعارة مكنية بمعنى ظلام الجسد ومتطلباته الدنيوية المحدودة ، فقد كان بها مبعداً ممتهن لا يرتقى لدرجة الوصل التى تتأتى بعد حلول محبة الله فى القلوب والأرواح ، " ونفخة القدس " كناية عن حالة الهداية والحب التى يغدقها الله على عبده الصالح فتجعله بنوره يحس بالروح ويرى بالعقل الذى وعى ، وهنا

(١) المرجع السابق ٧٨٨/٣ .
(٢) المرجع السابق ٧٨٩/٣ .

نتذكر قوله تعالى : ﴿ يهدى الله من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ ، فـــإن هذه النفخة المقدسة تجعل الصوفى يتناسى كونه مخلوقاً مـــن طـــين ، ليصير فى حالة سكر وغيبة عن الواقع المـــادى المـــشوب بالنقـــائض لتشرق فى نفسه أنوار الرضا والحب الإلهى .

الفصل الثانى
السمات البلاغية لشعر الوطنية

يتفرد أسلوب الإمام فى شعره الوطنى بخصائصه التى تميز لغته عن سائر شعراء الصوفية ، ومن الطبيعى أن يتنوع الأسلوب باختلاف الكتاب والشعراء والأدباء ، ومن البديهى أن لكل منهم لغته التى تميــز أسلوبه فى النظم ، ومن الضرورى لكى نصل إلى الخصائص البلاغية للمادة المؤلفة سواء كانت شعراً أونثراً لابــد مــن متابعــة مفرداتهــا وتراكيب جملها ، فمن خلال ذلك يمكن إدراك مميزات كل أســلوب ، فالقارئ فى الأدب والشعر ، المتعمق فى قراءته ، يــستطيع أن يميــز أسلوب كاتب بعينه أو شاعر قد أكثر من الاطلاع على شعره ...

إن البلاغة العربية تبحث فى الأساليب المختلفة التى تميز كتابــة عن غيرها ، وأسلوباً عما سواه، ونستطيع أن نحكم على الشاعر بجودة أسلوبه أو ركاكته من خلال الرجوع إلى استعمالاته اللغوية ، ومعرفة إن كانت هذه الاستعمالات أدت الغرض ووضحت المعنى أم أن الشاعر لم يستطع أن يوصل معانيه توصيلاً جيداً. لذلك يقال إنه أتقن اســتخدام اللغة، إنه يسيطر على مقاليدها ، ويعرف جميع طرقها ، وأن معجمــه اللغوى ثرى ، متدفق الألفاظ المنتقاة بدقة ، ويقال عنه أنه حــاذق فــى اختياراته اللفظية التى تنم عن عقلية فذة كثيرة الاطلاع ..

هذا ما يمكن قوله عن الإمام المجدد أبى العزائم ، الــذى اهــتم اهتماماً خاصاً باللفظ المستعمل فى شعره ، ووظفــه توظيفــاً متقنــاً ، فاختار لشعره الوطنى ألفاظاً اتسمت بالدقة والفصاحة ، فأدت دورها فى

إبراز المعانى وتوضيحها وقد بدا ذلك واضحاً من النصوص التى اختيرت ، وكما سنوضح فيما يأتى بإذن الله .

فمن عجائب سر جمال هذا الشعر الصوفى أنه السهل الممتنع، البسيط المعقد ، يستطيع القارئ العادى أن يفهم منه قدر إدراكه وقدر ما يحسه بقلبه ويفهمه بروحه ووجدانه حين يسمو ويعلو بفكره فوق المادية.

وعند مراجعة مفردات هذا الشعر وفحص تراكيبه يتراءى لنا أنه يتميز بتركيبه خاصة منفردة ، وألفاظه منتقاة مرتبة بحيث تؤدى معناها بدقة ودون خلل ، ونادراً ما يلحظ وجود لفظة قلقة فى مكانها .

نعجب من هذا الفيض الدافق ، فيض النفس المتوجهة إلى ربها ، فالانتقال من بيت إلى آخر ومن قصيدة إلى أخرى يتم فى سهولة ويسر رغم ما يحتويه الشعر من رموز وشفرات تحتاج إلى تفسير وتوضيح ، ولكنه شعر يُحسُ أولاً ثم يفهم ، فالقارئ يشعر وكأنه يفتح عينه لأول مرة على عالم نورانى يملأ جميع الجوانح بهجة وسروراً ، فالقراءة فى شعر الإمام أبى العزائم أشبه بالسباحة فى بحر من النور .

وأهم ما يميز أغلب شعره أنه بهدى من الكتاب والسنة ، فهو لم يتبع القوم أهل الجذبات الذين ينطقون بالكفر والضلال الصريح فى حالات الوجد وذهول العقل .

فإن مواجيد الإمام ما هى إلا فرط محبة لله عز وجل ، فهو لم يغال ولم يتوغل إلا فى القليل النادر ، ويقول الدكتور مصطفى محمود : " إنه (أى الإمام) يقرأ صفات الله فى صنعته وخلقه ، وتجلى أسمائه من كمالات صنعته " (١) .

---

(١) جريدة الأهرام بتاريخ ١٩٩٢/٧/٥م (مقال عن الإمام أبو العزائم) .

فهو الذى يقول[١] :

غاب عن عينى بمغناه المعنى وتراءى لى بذا الأثر الجلـى
فعيون الرأس تشهد مظهـراً وعيون السر شاهدات الـولى

وإذا كان المجاز فى البلاغة هو انتقال باللفظ من معناه الأصـلى إلى معنى مجازى ، فإنه يمكن إرجاع معظم الأساليب التعبيريـة فـى الشعر الصوفى إلى معانى مجازية ، يُراد بها التشبيه أو الاسـتعارة أو الكناية ، فلا يعقل أن الإمام يقصد : (عيون الرأس) أن الـرأس لهـا عيون حقيقية (وبعيون السر) أن السر له عيون على الحقيقـة ، فـذلك محال أن يكون قصده ، كذلك فإن اعتماده على الرمز والإشارة يعنـى فى عرف البلاغيين (كناية) أى نوع من التلميح والتلويح والتعريض فى القول .

والصعوبة التى قد يجدها القارئ العادى أحياناً عند قراءة شـعر الإمام ليس مرجعها التعقيد أو الإغراب فى استعمالاته اللغوية ، وليس مرجعها اختيار ألفاظ غريبة أو اختيار الألفـاظ التـى تتـشكل منهـا مصطلحات الصوفية ، فهو لم يستعمل اللفظ الغريب الموحش ، بل وقع باستمرار على اللفظ الفصيح الدال على المعنى ، ولكن الشعور بصعوبة فهم بعض التراكيب اللغوية أو الألفاظ المستعملة مرجعه عدة أمور :

أولها : إن القارئ العادى لا يحمل فى ذهنه حصيلة لغوية كافية لإدراك المعانى لذلك يتعثر أحياناً فى فهم بعض الألفاظ رغم كونهـا ألفاظاً فصيحة دقيقة فى معانيها .

---

(١) ديوان ضياء القلوب ٢/٢٠٥ .

ثانيها : إن جمل الإمام كما سيتضح مركبة تركيباً خاصاً يحتاج لمن عنده دراية واسعة بالتراكيب اللغوية من تقديم في الجمل وتأخير وذكر وحذف وإسنادات مجازية ، لذلك فهو شعر مفهوم لدى الفئة المثقفة المدربة على قراءة الشعر ويستطيع القارئ العادى كما سبق وقلت أن يتذوق شعره ويحس به أكثر من فهمه فهماً جيداً – وذلك القول ينطبق على بعض شعره وليس كله – لأن شعر الإمام فى معظمه واضح مفهوم لدى العامة من الناس . فاللفظ المستعمل فصيح وجيد ، لكن تتأتى الغرابة والصعوبة أحياناً فى فهم معناه نظراً لقلة تداوله وندرة استعماله .

ولأن الإمام أبا العزائم هو رجل الدين المتصوف المتدفق المعانى لذلك فشعره يحتاج للمتذوق العارف بفنون لغة المتصوفة وإبداعاتها وتراكيبها المتميزة ، فهو يحتاج من يصعد إليه ليفهمه ويتذوق معانيه ، ومن يرتقى بفكره فيصل إلى أغواره السحيقة ومعانيه الدقيقة .

ولغة شعراء الصوفية لها العديد من الخصائص التى تميزها عن غيرها من اللغات والأساليب الشعرية .

والواقع إن لغتنا العربية فى حاجة ماسة إلى كل عقل مفكر ، فى حاجة إلى من يفتش فى مفرداتها المعجمية ، لأن اللفظ إذا أهمل توظيفه وانعدم تداوله يحتضر ويموت ، فالألفاظ تتجدد بالتداول والاستعمال ، وترتقى باستنباط الاشتقاقات وتنويع الاستعمالات . ولكنها تلقى حتفها بالترك والإهمال ، لذلك توجب على كل كاتب وأديب وشاعر أن يتجول فى معاجم اللغة بحثاً عن التنويع فى الأساليب واستعمال التعبيرات

المختلفة للمعنى الواحد ، وبذلك تثرى اللغة وتنمو بالاستعمال الجيد والتوظيف المتقن .

أولاً : اللفظ :

وظف الإمام اللفظ الفصيح المتداول وكذلك وظف اللفظ (الرمز) الذى تناوله الصوفية وتعارفوه بينهم، فلم يُلحظ نبو أو خطأ فى استعمال الألفاظ أو خروج عن القياس أو عدم استساغة ، ففى الشعر الوطنى للإمام أبى العزائم – كما قلنا – وظَّف اللفظ بدقة وبراعة وإتقان ، فاستعمل المفردات القوية المؤثرة والدالة على روح الوطنية التى غمرته، والمؤكدة لثورته العارمة ضد الظلم والطغيان ، بجميع أشكاله وألوانه ، وفى تأملاته اختار اللفظ المعبر بدقة والذى يؤدى المعنى المراد فيلاحظ استعماله للألفاظ التى تميل إلى الرقة والسلاسة وتدل أيضاً على حبه للوطن .

ثانياً : تراكيب الجمل :

أما تراكيبه وجمله فجاءت بطرق مختلفة لتأكيد معانيه وتوضيحها، فاستعمال الجملة الفعلية جاء على أنماط مختلفة وكان الفعل هو السائد فى معظم جمله ، فاستعمل الجملة الفعلية وأكثر ما جاء فعل الأمر وخاصة فى معانى النصح والإرشاد لأبناء مصر وأبناء العروبة والإسلام مثال ذلك قوله مخاطباً العرب المسلمين[١] :

حافظوا وامحوا اختلافاً فى هوى ... والوفاق لكم به نيل الأمان
أخلصوا لله فى نهضتكم ... فهو جل لكل مظلوم أعان

---

(١) الجفر ٥٤ .

عصبة الظلـــم قـــصير عمرهـــا فاضرعوا لله صدقاً كـــل شـــان

فهو يطلب من المسلمين على سبيل النصح والتوجيه ، ليس على صفـــة الاستعلاء والإلزام ، أى أنه لا يأمرهم على وجه الحقيقـــة بـــل راجياً ناصحاً ، فاستعمل أفعال الأمر " حافظوا ، وامحوا ، وأخلصوا ، واضرعوا " .

ومن ذلك أيضاً قوله مخاطباً أمة الإسلام[1] :

أمـــة المختـــار توبـــوا أقبلـــوا جـــددوا الـــسنة فعـــلاً بـــالقرآن

فإن قوله " توبوا ، أقبلوا ، جددوا " ، أفعال أمر الغـــرض منهـــا الحث والإرشاد إلى السير على النهج الصحيح وهو نهج القرآن والسنة، ووصفه لهم " بأمة المختار "ليرغبهم ويشجعهم لكـــى يمتثلـــوا للأمـــر ويحققوا الرجاء .

كذلك أكثر من استعمال الفعل " أبشروا " على معنيين أحـــدهما : الغرض منه البشرى الحقيقية بالنصر ورفع راية الحـــق ، والثـــانى : الغرض منه التهكم من المستعمر فتكون البشرى بالأمور السيئة ، مثل ما جاء فى القرآن الكريم قوله تعـــالى : ﴿ فبـــشرهم بعـــذاب ألـــيم ﴾ فالبشرى دائماً تكون للأمور السارة أما العذاب فالبشرى به تعنى شـــدة الإنذار والوعيد .

ومثال البشرى فى خطابه عصبة الله من المسلمين قوله[2] :

---

(١) المرع السابق ٥٥ .

(٢) الجفر ٥٦ .

أبـــشروا ياعـــصبة الله فقـــد   قدر الرحمن بشـــرى بالعيـان

وقوله[١] :

أبـشروا فـــى آخـــر الفتح لنــا   آية تنبى بخيـر فـى العواقـب

أما استعمال (أبشروا) بغرض التهكم والسخرية ففى مثل قولـه منادياً (بنىالأصفر) ويقصد المستعمرين من شمال آسيا ، يقول لهم[٢]:

يا بنى الأصـفر الإلــه غيـورٌ   كم ظلمـتم أغـضبتم ثـم ربَّـا

أبشروا بالرضا وبالفوز يُعطـى   لمـــراد موفـــق لا ريبـــا

يريد أبشر بنصر المؤمنين المقهـورين المظلـومين ، ونـصر المظلوم لا يكون بشرى لهم ففى ذلك معنى السخرية منهم .

وهكذا نجد صيغ الأمر كثيرة ومتنوعة ، فى شعر الإمام الوطنى ، وهى من أفصل الصيغ المستعملة فى مجال الحث والإرشاد والتوجيه ، وكانت الأفعال " أفيقوا ، هبوا ، أعيدوا ، احفظوا ، سارعوا " من أكثر الأفعال المستعملة .

أما أساليب النهى فهى نادرة ، لم يوظفها الإمام أبو العزائم فـى شعره ، ويبدو هذا غريباً وغير مألوف ، لأن معظم الشعراء فى الغالب حينما يوظفون أفعال الأمر يتبعونها بأساليب النهى ؛ ولكـن ذلـك لـم ينطبق على استعمالات الإمام فلا نكاد نجد إلا القليل النادر مثال هـذا البيت الذى بدأه بأسلوب نهى فى قوله مخاطباً بنى العرب :

لا تميلـــوا للعـــدو وخـــادعوا   فالأعـــادى كلهـــم شـــر هـــوان

---

(١) المرجع السابق ٦٠ .

(٢) المرجع السابق ٨٤ .

فقوله : (لا تميلوا) من الصيغ النادرة ، فيبدو أن الإمام لم يكن معتاداً على استعمال (لا) الناهية ، مما يدل على سماحة طبعه ، وتواضعه وحكمته .

أما الجملة الفعلية التى فعلها مضارع فقد وظفها كثيراً وخاصة فى توقعاته وأمنياته وكشفه لأمور قد تحقق الكثير منها فيما بعد . وربما جاء استعماله للأفعال المضارعة فى هذا المجال لأنها تعنى الاستمرارية والتجدد والدوام ، وفى الفعل المضارع معنى الحدوث المستمر فى الحاضر والمستقبل لذلك كان توظيفه أوقع وأصوب فقد وظف المضارع كثيراً بمعنى الماضى ، أو بمعنى ما سيحدث فى المستقبل ، باعتبارها توقعات أو أمنيات يرجو تحققها . ومثال ذلك قوله عن الهند[١] :

أيقظ الهند حوادث كررت   قامت الهند وقومتها تعان

وقوله عن الصين :

تنهض الصين بأفراد لهم   جانب والحق يرفع كل دان

فالفعلان " أيقظ وتنهض " مضارعان من توقعات الإمام لما سوف يحدث فى الهند والصين فى المستقبل من يقظة ونهوض .

وقوله[٢] :

ينمحى الظلم بعدل تنمحى   ظلمة الكفر تلوح الجنان
يظهر النور بأفراد الهدى   فى المثانى سبعة ثم القرآن

---

(١) الجفر ٦٠ .

(٢) الجفر ٦٤ .

وهو يشير بالبيت الأخير إلى قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِّنَ المَثَانِي وَالْقُرْآنَ العَظِيم ﴾ (سور الحجر : آية ٨٧) فهو يتنبأ بما سوف يحدث من انتصار لكلمة الله تعالى .

كذلك أكثر الإمام من استعمال الفعل المبنى للمجهول سواء كان مضارعاً أو ماضياً ، ولهذه الصيغة أهميتها فى شعره ، خاصة شعر التنبؤات ، لأنه فى الغالب يسند الفعل إلى مجهول ومثال ذلك قوله :

يُغمَد السيف عن رجال بآسيا باتحاد والعهد يجزيه قائم

فهو يتنبأ بأن الحرب سوف تخمد بآسيا ، فعبر عن ذلك بـ " غمد السيف " والغمد هو موضع السيف ، وغمد أى وضعه فى جرابه وذلك كناية عن إبطال الحرب ، فالفعل المضارع " يُغمَد " مبنى للمجهول للدلالة على أن ذلك الحدث وراءه قوة تعينه وتؤازره .

كذلك قوله آملاً باندثار الظلم[١] :

كل عال قد شُيِّدَ بالظلم يُمْحَى والإمام الخفى يظهر قائم

فإن (شُيد ويمحى) فعلان مبنيان للمجهول ، فالشطر الأول كناية عن المستعمر الطاغية الذى جمع ثروته من ظلم الضعفاء وسلبهم حقوقهم أى إن كل ما شيد وعلا بالظلم والطغيان مآله إلى زوال ، وسوف يظهر الإمام (وهو رمز صوفى) طالما اشتاق المسلمون إليه، لدحر عدوهم والقيام على رعاية مصالحهم.

ومن استعمالات الفعل الماضى المبنى للمجهول قوله عن روسيا[٢]:

---

(١) الجفر ٤٢ .

(٢) المرجع السابق ٤٢ .

روس دُكَّتْ جبالهـــا ثـــم قامـــت   عام غاشم يهوى بها فى الملاحم

فقوله " دُكَّتْ " فعل ماضى مبنى للمجهول ، وعام " غاشم " هـــى كلمة تعنى عام ١٣٤١ هـــ فمن المعروف أن الإمام كان يرمز إلى عدد السنين بحروف معينة لها حسابات دقيقة معروفة ، وهو يريد أن روسيا بعد أن تُهزم وتُدك جبالها تقوم قومتها مرة أخـــرى ، وأن هـــذا العـــام المذكور سوف يشهد الملاحم أى ملحمة الحرب .

ثالثاً : المحسنات اللفظية والمعنوية :

(أ) نلحظ أنه كان مدركاً أشد الإدراك إلى ماهية الحياة التى تقوم على التناقض والتضاد فالليل لابد أن يأتى بعده نهار ، والظلمة يعقبهـــا النور ، والغروب لابد له من شروق ، والبعث بعد الموت ، واليقظـــة والإفاقة بعد النوم والثبات ، والحرية بعد القيود والأغلال ، والعزة بعد الذل والهوان ، إلى آخر هذه المطابقات ، وظفها الإمام لإبراز معنـــى هام طالما أكد عليه وهو " دوام الحال من المحال " ، وأنه لابـــد بعـــد الظلم والهوان أن ينتصر الحق ويعلو صوت الإسلام .

ومن الملاحظ قلة المحسنات اللفظية ، لأن الإمام كان يعبر بصدق عما يخالجه من مشاعر وأحاسيس وأفكار ، لا يبحث عن تزيين كلامه ، فشعره يركن إلى الطبع أكثر من التصنع ، فالشعر يخرج منه وكأنـــه يحدث نفسه ويناجيها ويناجى ربه أو ينادى بلاده وأبناء بلاده أو يناجى الطبيعة ، فإذا بأفكاره تخرج فى شكل كلام منظوم بديع .

رابعاً : الصورة البيانية :

نلحظ استعماله المتكرر للصور لدالة على تلك المعـــانى مـــن : حرب تسعر ، ونار تؤجج ولظى، ودخان ، ولهيب الشرارة ، والبراكين التى تبتلع ، والجبال التىتدك ، وأخرى تخور ، وبحار تفيض ، ونكبة المهاوى ، ولهيب الغارة ، إلى غير ذلك مما يدل على قوة التصوير .

وظف الإمام الصورة البيانية (من تشبيه واســـتعارة وكنايـــة) ببراعة لتؤدى دورها فى إثبات المعنى وتوضيحه ، وقد تنوعت الصورة بتنوع موضوعاته ويلحظ كثرة الاستعارات بحيث تعتبر لغته مجازيـــة بشكل عام كذلك قصد إلى الرمز والإشارة والكناية والتعريض كثيراً ، أو الصورة التشبيهية فقد وردت عفو الخاطر فلم يقصد إليهـــا قـــصداً فالصورة عنده تتمتع بالقوة والوضوح فى الدلالة ، ومثال ذلك تصويره ليقظة الشرق بعد طول استسلام وهوان بقوله(١) :

يبعث الشرق بعد مـــوت طويـــل   يرجع المجـــد نحـــوه والمغـــانم
هب ريح الـــصبا فأحيـــا مواتـــاً   صار حيـــاً والله بالغيـــب عـــالم
تبلغ الأرض فىالجنوب الطواغـــ   ـــيت ويرمى بركانها بـــالمراجم

لاحظ كيف شبه تأخر الشرق وركوده واستسلامه لظلم المستعمر بالموت على سبيل الاستعارة الأصلية ، فيرى أن الشرق سوف يبعـــث إلى الحياة بعد الموت الطويل ، ثم يأمل أن يعود المجد إلـــى الـــشرق ورجوع عزته وقوته التى حكم بها فى العالم ، وصورة موت الـــشرق وإحيائه وغفلته وإيقاظة من الصور التى كثر ورودها .

وهو يكنى فى البيت الثانى عن عودة الحياة للشرق بقوله : " هب ريح الصبا " وهى الريح الطيبة التى عرفها العرب وتأتى بالنسيم العليل.

(١) الجفر ٤٠ .

ويكنى فى البيت الثالث عن ثورة المسلمين ضد الظالمين الـذين شبههم بالطـواغيت زيادة فى إظهار قبحهم ، ثم شبه الثوار بالبركـان الذى يرجم المستعمر بالمراجم على سبيل الاستعارة التمثيليـة بجـامع الهلاك فى كل .

ومن الكنايات البديعة التى كررها الإمام قوله[١] :

سُلَّ سـيف الأردن منـه عليـه   وهو بـاب لمحـو بـاغ ونـاقم
تلطم اليـد رأسـها كيـف هـذا   تضرب الرجل صدرها غرم غارم

والشطر الأول كناية عن محاربة الأخ لأخيه ، هو ينعى على أهل الأردن أن يحارب الأخ أخاه فالصحيح أن يحارب العدو الباغى ، فيكنى عن خيبة الأمل والشعور بالأسى والأسف لما يجرى بين الأخوة فيقول: " تلطم اليد رأسها " ، و " تضرب الرجل صدرها " ويال قوة بـصيرة الإمام ونظرته الثاقبة لما يجرى بين الأخوة فإن الحال ما زال هو الحال حتى وقتنا هذا ما زال الصراع قائماً بين الأشقاء وأبناء البلد الواحد ما زال الشرق فى حاجة ماسة إلى من يجمع كلمتهم ويوحد رايتهم .

ومن الصور التى اهتم بها الإمام أيضاً تصويره " الرحى " التـى تطحن ، فقد وظفها بكثرة مثال قوله[٢] :

والرحى تطحن الرؤوس كمـا دا   رت غربـاً بقهـر مـلازم
عـدل رب بالانتقـام يجـازى   كل محب يسعى لنـشر المظـالم

(١) المرجع السابق ٤١ .
(٢) الجفر ٤٢ .

فقوله : " والرحى تطحن الرؤوس " صورة استعارية تمثيلية من تشبيه هيئة الحرب ضد العدو ودحره والنيل منه ، بهيئة الرحى تطحن الرؤوس كأنها تطحن الحب بجامع الإتلاف والإضرار فى كل والمراد أنه كما أشعلوا الحروب فىكل مكان سوف تدور عليهم الدوائر.

والبيت الثانى تأكيد بأن ذلك عدل رب كريم يجازى بالانتقـــام أى بالجزاء الأوفى ، وهو يجازى كل خب أى لئيم وماكر يـــسعى لنـــشر المظالم . وتأمل هذه الأبيات التى تحمل صوراً قوية وتدور حول نفس المعنى فى قوله(١) :

تسعر النار بين وســط جنـــوب ... أخـــذ ثـــأر بـــه تـــدك الـــدعائم
ينمحـــى زخـــرف وزينـــة زور ... شادها الغرب فى الظلام القـــاتم
والليـــالى نعـــم حُبـــالى ســـتأتى ... بالدواهى للغرب حكـــم الحـــاكم
طرتموا فى السماء وغصتم بحاراً ... ثم قمـــتم للقهـــر بـــث المظـــالم
كـــم ظلمـــتم عبـــاده وســـفكتم ... من دمـــاء بريئـــة مـــن مـــسالم
لم تخافوا القهـــار وهـــو غيـــور ... ذو انتقام مـــن ظـــالم ومـــزاحم
يا رحىالحرب فاطحنىالرؤوس أجيـــــــــــــــــــدى ... طحنها بين هالـــك بـــين راغـــم
يا ليوث الشرىاذكروا "سوف يأتى" ... آية الذكر طمأنـــت كـــل عـــالم
قد صبرتم على المظـــالم دهـــراً ... سوف يأتى الله بأهـــل المكـــارم

---

(١) الجفر ٤٢ ، ٤٣ .

انظر هل هناك أقوى وأصدق وأشد إثارة للحماسة والحمية من هذا القول ؟ إنها أبيات تمتلئ بالصور البيانية التى تبث الأمل فى النفوس وتثير الهمم وتعين على الصبر والمثابرة .

ولنتأمل البيت الأول ، لنلحظ أنه يشبه الحرب بالحطب الذى تقاد فيه النار فيقول : " تسعر الحرب " على سبيل الاستعارة المكنية فى الفعل ويرى أن هذه الحرب من جانب الوطنيين هىأخذ بالثأر من الطواغيت اللئام أعداء الإسلام والمسلمين ، وسوف تدك دعائمهم ، فشبه سطوتهم وسيطرتهم بالدعائم التى ثبتوها فى البلاد ، والإمام يتنبأ بزوال سطوتهم ، وهو يشبه الحرب مع الأعداء بالثأر ، ويمكن ملاحظة ترك العاطف بين (وسط جنوب) .

وفى البيت الثانى يذكر أن ما شاده الغرب فى الشرق من زخرف وزينة تخدع النواظر سوف ينمحى بأمر الله لأنه شادها للخداع وليس للمنفعة الحقيقية ، فعبر عن ذلك بقوله : " شادها فى الظلام القائم " كناية عن أنه شادها فى الخفاء للمخادعة، وقوله (ينمحى زخرفة وزينة زور) كناية عن انكشاف مخادعات المستعمر وفضح أمره .

وفى البيت الثالث استعارة تمثيلية رائعة حيث شبه الليالى بالنساء الحبالى ، وأن هذه الليالى سوف تلد دواهى ومصائب تعود على الغرب بالدمار والخسران ، فذلك حكم الله الحاكم القادر ، بجامع ظهور ما فيه ضرر للغرب ، وما يتسبب فى إحداث مصائب .

وفى البيت الرابع يصور قوة الغرب فى قوله : " طرتمو فى السماء " كناية عن صناعة الطائرات التى غزوا بها أجواء العالم ، وقوله : " غصتم بحاراً " كناية عن صناعة الغواصات التى تجوب بحار

العالم ، وهو يرى أنهم بهذه القوة قد أشاعوا الظلم والفساد فى كل مكان. (وبث المظالم) استعارة مكنية فى الفعل بمعنى إحداث المظالم بين الناس.

وفى البيت الخامس يقول : " كم ظلمتم " وكم هنا للتكثير ، فهــو يحاسبهم على ما اقترفوه فى حق الشعوب من ظلم وسفك للدماء البريئة. و (دماء بريئة) مجاز عقلى من إسناد المصدر (برئ) للدماء ، مثل قوله تعالى فى سورة يوسف ﴿ وجاءوا على قميصه بدم كذب ﴾ .

وفى البيت السادس يواصل مخاطبة الغرب قائلاً : " لــم تخــافوا القهار " كناية عن صلفهم وعتوهم وجبروتهم وأنهم لم يراعوا حرمة أى دين ، وقوله " وهو غيور " جملة حال معطوفة بالواو والضمير " هو " وتعنى أن الله غيور على عباده الصالحين ، لذلك سوف ينصرهم، فقال: إن الله ذو انتقام من ظالم ومزاحم ، مزاحم غيره فى الــرزق ، فجــاء الكلام موجزاً بالحذف ، لدلالة السياق ، والحذف أبلغ من الذكر لأنــه يدفع للتفكير فى الأمر المحذوف .

ثم ينادى فى البيت السابع " يا رحى فاطحنى الــرؤوس " نــداء للرحى غير العاقل يعنى أنه يتمنى أن يصيبهم انتقام الله بثورة عبــاده عليهم ، وزيادة فى التعبير يقول : " أجيدى طحنها " أى الرؤوس إمعاناً فى المبالغة ، فشبه طحن الرؤوس بطحن الغلال على سبيل الاســتعارة التمثيلية ، وبلاغة الصورة تتأتى من أن الرحى إذا طحنت لا تبق شيئاً بل تأتى على كل شئ يقع بين رحاها .

وفى البيت الثامن ينادى الوطنيين الثائرين مشبهاً إياهم بــالليوث والآساد ، فيبشرهم بعون الله ، فالنداء الغرض منه بث روح الــشجاعة فى النفوس .

وفى البيت التاسع يؤكد لهم أنهم " قد صبروا " على المظالم زمناً طويلاً ، وآن لهم أن يهبوا من جديد ، وسوف يأتى الله بأهل المكــارم ليحققوا النصر والغلبة ، (وأهل المكارم) كناية عن الوطنيين القادرين على الذود عن الوطن والدفاع عنه .

خامساً : توظيف (قد) :

وهو يستعمل " قد " بكثرة مع الفعل للتوكيد مثال ذلك قوله[(١)] :

لقد تظهر الأحداث تشغل عــاقلاً   تطمــئن أهــل عنايــة الغفــار

فاستعمال " قد " مع الفعل المضارع " تظهر " للتوكيد على ظهور الأحداث التى تشغل العقلاء وتطمئن أهل عناية الغفار .

كذلك قوله مخاطباً الإخوة العرب المسلمين[(٢)] :

قد أعنــتم أعــداء طــه أفيقــوا   شمس دين الهدى تلــوح بغاشــم

فاستعمل " قد " مع الفعل الماضى " أعنتم " للتوكيد على الطريق الخاطئ الذى سار فيه الإخوة حيث أعانوا أعداء سيدنا محمد ﷺ ، فهو يطلب منهم أن يفيقوا ، وجملة " شمس دين الهدى تلوح " جاءت للتوكيد على أهمية امتثالهم للأمر " أفيقوا " والمعنى أفيقوا لأنى أرى أن انتصار الحق والهدى يلوح فى هذا العام .

والأمثلة كثيرة على توظيف " قد " [(١)] للتوكيد ، أو للشك فى الفعل مثال قوله[(٢)] :

---

(١) الجفر ٧١ .

(٢) الجفر ٤١ .

قد يعود زمان أندلس لنا   حيث يغشى الغرب بالظلم والدخان

فهو يتشكك فى عودة زمان أندلس لذلك يرى أنه ربما عاد هذا الزمان ، إذ يغشى الدخان الغرب بظلمهم .

ولشعر الإمام – فى الواقع – خصائص كثيرة لا يشترك فى الكثير منها مع الشعر الصوفى ، لذلك فإن من يطالعه يحس اختلافاً واضحاً بينه وبين الشعر الصوفى فالإمام صاحب حمية ونفس ثائرة ضد الظلم ، كما كان تصوفه رؤية للمسلم الغيور على دينه .. ولكن قد نلحظ أن شعره يقترب ويتلاقى مع شعر الصوفيين فى أمرين :

الأمر الأول : أنهم يضعون الجملة بجوار الجملة ونادراً ما يستعملون أدوات العطف وخاصة الواو .. لذلك فهو شعر يشبه الترجمات ، وربما تأتى ذلك من أن معظم شعراء الصوفية كتبوا باللغات الفارسية والتركية وغيرها وترجمت مؤلفاتهم للعربية ، قرأها الصوفيون العرب فتأثروا بتراكيبهم اللغوية إلى حد كبير وربما – أيضاً – لأن الصوفى كثير التوضيح والتفسير فى شعره .. والمعروف أن الجمل التفسيرية والتوضيحية تجئ فى الغالب بدون عاطف ، مثال ذلك قوله مخاطباً المستعمر(٣) :

قد شكت إفريقيا من ظلمكم   كل واد فيه ظلم الثعلبان

---

(١) قد : حرف يختص بالدخول على الفعل الماضى أو المضارع المتصرفين المثبتين ، فيقيد التحقيق والتأكيد إذا دخل على الفعل الماضى ، ويفيد الشك أو احتمال الوقوع إذا دخل على الفعل المضارع ، ويفيد التقليل بقرينة وكذلك التكثير بقرينة (انظر المعجم الوسيط فى الإعراب ٢٢٥ ، ٢٢٦) .

(٢) المرجع السابق ٦٣ .

(٣) الجفر ٧٦ .

و " الثعلبان " كان يرمز به إلى صور الاستعمار على مر العصور، ويمكن أن نلحظ أن جملة " كل واد فيه ظلم الثعلبان " مفصولة لأنها توضح وتفسر المعنى فى الشطر الأول من البيت ، والمراد : أن إفريقيا تشتكى من ظلم المستعمر ، والحقيقة أن كل واد عامر على ظهر الأرض يشتكى من ظلمهم ، فلم يقل " وكل واد " بالعطف ، فترك العطف لأنها جملة تفسيرية فوجب الفصل. و (الثعلبان) يكنى به عن إنجلترا وفرنسا .

كذلك قوله عن الإفرنج[1] :

فرق الإفرنج جمع قلوبنا ذاك تأديب لنا صح البيان

فقوله: " ذاك تأديب لنا " رد فعل لقوله "فرق الإفرنج جمع قلوبنا " لذلك لم يعطف الشطر الثانى على الأول بالواو .. وكأن التفرقة جزاء لنا نحن المسلمون على خضوعنا واستسلامنا وبعد الأخ المسلم عن أخيه المسلم .

وهكذا نجد أغلب تراكيب الإمام الشعرية ، فيحتاج للمتذوق الذى يعمل عقله ويدير فكره فى استنباط واستجلاء المعنى .

الأمر الثانى : تميز شعر الإمام بما خص شعراء الصوفية إذ أنهم يفضلون – غالباً – لغة الإيجاز ، والإيجاز فى البلاغة يعنى كلام قليل يحتوى على معانى كثيرة ، والمجاز يكون بحذف بعض الحروف أو الكلمات أو الجمل ، والاستغناء عنها إذا استقام المعنى وعرف بدونها ، كذلك يكون الإيجاز " بالقصر " أى استعمال

---

(١) الجفر ٧٦ .

جمل قصيرة تؤدى معانى كثيرة ، ومثال ذلك قول الإمام عن الإسلام(١) :

يظهر الإسلام يرجع مجده   والبشائر بينت تلك المواهب

يريد أنه سوف يظهر الإسلام وسوف يرجع مجده الذى ضاع ، وهذه بشائر النصر قد بينت تلك المواهب التى وهبها الله للمسلمين ، فجاء البيت موجزاً بالحذف .

وقوله(٢) :

السيف والنار ليس للأمان ولا   للحق بل لظلام الظلم كالقار

والقار هو " الزفت " الذى يستعمل فى رصف الطرق ، والبيت فيه إيجاز بالقصر ألفاظه قليلة ولكنه يحمل معانى كثير فهو يريد أن يقول : إن الوصول إلى الحق والأمن والأمان لا يمكن أن يكون عن طريق الحروب وكنى عن ذلك بقوله : " السيف والنار " لأنهما من لوازم الحروب والظالم يستعملها ليصير فى ظلام ظُلْمِه الذى شبهه بالقار فى سواده الشديد .

سادساً : الأساليب الإنشائية :

وأساليب النداء من الصيغ الهامة التى وظفها الإمام بغرض الحث وإثارة الحمية للمسلمين ، وبغرض التهكم والسخرية للمستعمر العدو الغاشم مثال ذلك قوله(١) :

---

(١) المرجع السابق ٦٠ .

(٢) ضياء القلوب ١٧٩/١ .

أيهـــا الخـــائنون موتـــوا بـــذل   غـــين جـــشم فـــأجلى الـــستارة

ويريد بالخائنين أعوان الاستعمار المنافقين الذين يظهرون غير ما يضمرون، فيكونوا أشد خطراً على الإسلام من أعدائه الظاهرين، فيدعو عليهم بالموت ذلاً و" غين جشم " ترجمة بالرحوف لسنة ١٣٤٣هـــــ، على طريقة حساب الأرقام بالحروف التى اتبعها الإمام فـــى شـــعره ، كذلك ينادى الغرب قائلاً (٢) :

أيها الغرب قــد طغيــت ولكــن   غدمش قد أتـــى لـــرد المـــسالب

و " غدمش " حساب بالجمل لسنة ١٣٤٤ هـــ ، وهو ينادى الغرب بغرض اتهامه بالنهب والسلب فيخاطبه خطاباً صريحاً ويوجه إليه تهمة السلب والنهب لخيرات الشعوب ، وأنه حان الوقت لرد هذه المسالب ، وقد ذكر الغرب وأراد حكامه على سبيل المجاز المرسل لعلامة المحلية.

ويخاطب فرنسا قائلاً (٣) :

يا فرنسا فى أرض شرق فبـــوئى   بالمخازى فغدمش ســـر غالـــب

ينادى فرنسا ويريد نداء حكامها الطغاة المستعمرين بغر الـــدعاء عليهم وهو أيضاً خطاب صريح يوضح مدى ما تحلى به الإمام رضـى الله عنه من شجاعة وقوة شكيمة ، فهو يدعو على فرنـــسا بـــأن تبـــوء بالمخازى وأن يكون ذلك العام مبشر بالغلبة عليها .

كذلك ينادى الظالمين فى كل مكان قائلاً :

---

(١) المرجع السابق ٤٥ .

(٢) ديوان ضياء القلوب ٣٤٤/١ .

(٣) المرجع السابق ٣٤٥/١ .

أيهـا الظـالمون قهـراً أفيقـوا غدمش جاء منـذراً ومحاسـب

ينادى الظالمون بالقهر واغتصاب خيرات البلاد ويطلـب مـنهم بصيغة الأمر للانتباه وفيها معنى التحذير أن يفيقوا لأن المستقبل يحمل لهم الذل والهوان ، ولن يستطيعوا المضى فى ظلمهم .

ومن الأساليب الإنشائية التى أكثر الإمام من توظيفها أيضاً كمـا اتضح من الأمثلة السابقة (الأمر) ، أما النهى – كما ذكر – فنـادر ، وأما الاستفهام فقليل ، ومن أمثلة الأمر قوله عن المستعمرين :

ثم يقول[1] :

كم أراقوا الدماء ظلمـاً أبـاحوا حرمة الدين فى انتصار لراهـب

أيهـا الظـالمون قهـراً أفيقـوا فالقوى القهـار عـدلاً يحـارب

و (كم)[2] للدلالة على كثرة ما أراقوا من دماء ظلماً ، وبـدون وجه حق ، وهى كم الخبرية التى لا يراد لها جواب وقال : (أباحوا) والأصل أن تربط بالواو ، لكن الإمام دائماً يعتمد على ذكـاء المتلقـى وتذوقه للمعنى .

ثم يتوجه للظالمين منادياً (أيها الظالمون) ليخرج النـداء إلـى معنى مجازى وهو التقبيح والسخرية ، ثم يقول (أفيقوا) فيخرج الأمر إلى معنى التهديد والوعيد فالقوى القهار سوف يحاربكم ، يريد : أيهـا الظالمون انتظروا حرباً من الله ، فالعدل يقتضى ذلك .

---

(١) ديوان ضياء القلوب ١/٢٤٥ .

(٢) كم الخبرية : تكون بمعنى (كثير) المعجم الوسيط فى الإعراب ٢٤٨ .

ولم يترك الإمام أبو العـزائم دولة مقهـورة من ظلم المـستعمر إلا وناداها وبشرها بالنصر مهما طال ليل الظالمين ، يشد من أذرهـا ويعلى من شأنها ويحث أبناءها على الجهاد ومن ذلك خطابـه لرجـال الهند قائلاً (١) :

يا رجـال الهنـد أنـتم عـصبة	جاهدوا فى الحق والحق يـصان
حافظوا وامحوا اختلافاً فى هوى	والوفاق لكم بـه نيـل الأمـان
أخلـصوا لله فـى نهـضتكم	فهو جـل لكـل مظلـوم أعـان
عصبة الظلـم قـصير عمرهـا	فاضرعوا لله صدقاً كـل شـان

ينادى رجال الهند للحث والاستنهاض ، وكثيراً ما يتلو النداء أمر، فالنداء يكون للانتباه ليأتى الأمر (جاهدوا) للنصح ، ويوضح الجهـاد المجمل ، بأنه جهاد فى الحق .

ثم يأمرهم فى البيت الثانى (حافظوا ، وامحوا) بغرض النصح والإرشاد أن يمحوا اختلاف الأهواء، ويطابق بين (اختلاف ، والوفاق).

ثم يقول (أخلصوا لله) ينصحهم أيـضاً، إذا أرادوا النهـضة أن يخلصوا لله ثم يقول (عصبة الظلم قصير عمرها) وكأنـه يريـد أن يقول: واعلموا أن عصبة الظلم قصير عمرها ، والخبر ابتدائى بـدون مؤكدات للدلالة على أنه من الأمور المعلومة . ويكنى بعصبة الظلم عن المستعمر والطغاة ، وأخيراً يأمرهم ناصحاً أن يضرعوا لله فهو الصادق الوعد .

---

(١) الجفر للإمام محمد ماضى أبو العزائم ٥٤ .

ومخاطباً بعض البلدان العربية قائلاً [١] :

في فلسطين بل تونس ومــراكش ... نــار ظلــم لخــسة الإســلام
آه في الشام في طــرابلس غــيم ... يحـــرق الأخـــضرين بـــالآلام
والكرام الأبطـــال فـــي تفريـــق ... بـــين عـــز ورفعـــة واعتـــصام
بين أهل الحجــاز بــين يمــان ... سوء رأي يلقى إلـــى استـــسلام
أجمعوا رأيكـــم فـــإن الأعـــادي ... يال قومي جاء والسلب الرغـــام
أفسدوا الـــدين والقلـــوب بكيـــد ... قدر الله محـــوهم فـــي الظـــلام

وقوله (آه) إشارة إلى توجعه وأساه لحال العبــاد فــي الــبلاد العربية فيأتي الشطر الأول كله مقدم على الشطر الثاني والمعنى : (نار ظلم لخسة الإسلام في فلسطين ...) ، وقوله (بل) لا يعني الرجــوع عن قوله (في فلسطين) ، فالصحيح أن يعطف بالواو ، ولكن يبدو أن توظيف (بل) لضرورة الوزن ، والمعنى : بل أيضاً في تونس .

وفي البيت الثاني يكني بــ (الغيم) عن الحــروب الطاحنــة ، وقوله يحرق الأخضرين) كناية عن الشجر والناس معاً ، والإحــراق استعارة تبعية بمعنى الإهلاك . ثم يطلب من العرب أن يجمعوا رأيهــم على سبيل النصح والإرشاد ، وينعى عليهم سوء الرأي .

وقوله (يال قومي) تعبير عن أساه وحزنه على ما يفعله الأعادي من سلب وقوله (السلب الرغام) فالرغام التراب وذلك كناية عن سلبهم لكل شئ ولا يتبقى إلا الرغام ويمكن ملاحظة أن الفعل (جاء) مفرداً ،

---

(١) المرجع السابق ٨١ .

يعود على (الأعادى) وكان حقه أن يكون من الأفعال الخمسة (جاءوا) لكن يبدو أن الشاعر آثر المفرد للضرورة الشعرية .

والحقيقة أن عام ١٣٤٤ هـ يوافق عام ١٩٢٥م ، وهو عام ملئ بالأحداث الهامة حيث استمر فى الاتصال بالعلماء والزعماء[١] ولم يترك بلداً أو قطراً فيه مسلمون ، إلا واتصل بهم مبيناً أهمية مقام الخلافة الإسلامية بالنسبة للإسلام والمسلمين ، – وذلك بعد أن ألغيت الخلافة الإسلامية فى تركيا عام ١٩٢٤ م – فكان أول من نادى إلى عقد مؤتمر فى داره ، " حيث اجتمع عدد كبير من أبناء مصر والعالم الإسلامى ، وتاريخ الأحداث يشير إلى أن الإمام أبا العزائم قد اتصل بعلماء البوسنة والهرسك ، يبين لهم فيه حقيقة جماعة الخلافة بوادى النيل والتى يرأسها ، وأنهم ردوا عليه بالموافقة على المشاركة والتضامن ، والواقع أن قصة الخلافة هذه يطول فيها الكلام وللإمام مواقف رائعة فى صراعه مع السلطة الحاكمة والمستعمر الغاشم ، ولم يتوان عن ندائه المستمر للمسلمين فى كل مكان بالاتحاد والتآلف " [٢] وليته بيننا الآن ليرى كيف يحارب أهل الصليب الإسلام والمسلمين فى كل مكان ، وكيف يحارب المسلمون بعضهم البعض فيعملون بأيديهم على كسر شوكتهم ، وإعطاء الفرصة لأعداء الإسلام للنيل منه .

والإمام أبو العزائم الوطنى الثائر ضد الظلم والإرهاب قد نجا من محاولات شتى لإسكاته ، فقد حاول الاستعمار أن يسكت صوته بكل

---

(١) راجع الإمام محمد ماضى أبو العزائم ٢١٩ وما بعدها .

(٢) المرجع السابق ٢٢٠ (بتصرف) .

وسيلة ، فتدرجوا معه من الإغراء إلى الإرهاب ثم العنف والقمع ، فكانت السلطات المحتلة تلقى القبض عليه من وقت لآخر ، حتى إنهم ألقوا القبض عليه مرتين فى عام واحد .. " [1] لكنه ظل على كلمة الحق يعلنها صريحة واضحة ، وكان يتوسل أحياناً بأسلوبه الساخر متهكماً مخاطباً المحتل بهدوء معلناً رأيه ، ومن هذه المواقف خطابه إلى اللورد كرومر ، بعد حادثة دنشواى الشهيرة ، لاحظ كيف وظف أساليب الإنشاء فى خطابه حيث يقول له[2] :

إليك أمرى يا مولاى أرفعه ... والعبد يسأل بالإخلاص مولاه
أنت الغيور على الفقراء تنصرهم ... ومن أتى ضارعاً لله أغناه
يا سيدى غارة من سوط نقمتكم ... على من يرد ذلهم والناصر الله
طغى علينا بما قد نال من نعم ... من زينة العرض الفانى ومبناه
وليس للفقراء غوث يغيثهمو ... إذا رموا غير قول حسبى الله
غارة الله إن الظالمين طغوا ... بغياً علينا وكيد القوم يخشاه
فأسرعى فى دمارهمو بكارثة ... ترمى عميدهمو فالبغى أعماه

يبدأ بالتضرع إلى الله وطلب العون لرفع الظلم ودحر العدو ، وينهى كلامه بالدعاء على الظالمين الطغاة والدعاء على عميدهم " اللورد كرومر " الذى أعماه البغى والظلم .. وقوله " غارة الله " يريد " يا غارة الله " بتقدير أداة النداء (يا) ويكنى بها عن نصر الله للمؤمنين ومؤازرته لهم ، فهو نداء يراد منه الدعاء ، والضمير فى "

---

(١) مقدمة الجفر٣٧ (بتصرف) .
(٢) ديوان ضياء القلوب ٦٦٥/٣ .

أسرعى " يعود على غارة الله .. فهو يتمنى انتقام من الله علـــيهم ، لأن الله هو مغيث الفقراء الذين علقت لهم المشانق دون ذنب اقترفوه أو إثم ارتكبوه .

وقد كانت ثورة الشعراء ورجال مصر المخلصين سبباً مباشـــراً لإقالة اللورد كرومر فيما بعد .

الخـــاتمة

وبعد فالإمام أبو العزائم كان داعية وحدة واتحـــاد وإخـــاء فـــى الإسلام ، وفى الإنسانية جمعاء ، كان همه الدائم وشغله المستمر هـــو جمع القلوب وائتلاف العقول على الخير والحق والعمل الصالح ، وقـــد تميزت دعوته بالحكمة والموعظة الحسنة ، والترغيب لا الترهيـــب ، لذلك جمع القلوب حوله وآزره المسلمون فى كل مكان من العالم وكان يلقى بعبء المسئولية على العلماء والوعاظ فى عصره ، فلم يسكت عن إعلان رأيه فى بعضهم فقال عنهم : " مرض العلماء والوعاظ فصاروا أضر على الأمة من حمقاها ، وليس العلم ما به الوجاهة ورفعة المنزلة بين الناس ، إنما العلم ما به الخشية من الله والغيرة لدينه والمـــسارعة إلى محاب الله ومراضيه " [(١)] . رضى الله عن الإمام فمازال الإســـلام يعانى مما كان منه يعانى ، ومازال المسلمون فى حاجة إلى من يقودهم ويوحد كلمتهم ويعبر بهم إلى طريق الحق والخير ، فى حاجة إلى مـــن يجرد نفسه عن الشهوات وينسى الأحقاد ويوجههم بقلـــب خـــال مـــن الأهواء .

---

(١) انظر الإمام محمد ماضى أبو العزائم ٩٤ وما بعدها .

المصادر والمراجع

- الإشارات والتنبيهات : محمد على الجرجانى، تحقيق د. عبد القاهر حسين ، دار نهضة مصر .
- أصول الوصول للإمام محمد ماضى أبو العزائم ، ١٩١٢ م .
- الإمام محمد ماضى أبو العزائم . لعبد المنعم محمد شقرف، دار الطباعة الحديثة .
- بغية الإيضاح : عبد المتعال الصعيدى، دار السعادة ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.
- تاريخ التصوف فى الإسلام : د. قاسم غنى، النهضة المصرية ١٩٧٠ .
- التفكير فريضة إسلامية للعقاد ، م العصرية ن بيروت صيدا .
- جريدة الأهرام بتاريخ ١٩٩٢/٧/٥ .
- الجفر للإمام محمد ماضى أبو العزائم ، دار الكتاب الصوفى ط ٣، ١٤١١هـ/ ١٩٩٥ م .
- ديوان ضياء القلوب من فضل علام الغيوب . للإمام محمد ماضى أبو العزائم ، دار الصوفية ، ليبيا .
- عبقرية العقاد : د. عبد الفتاح الديدى ١٩٨١ م .
- لسان العرب لابن منظور ، دار المعارف .
- مذكرة المرشدين والمسترشدين للإمام محمد ماضى أبو العزائم ، دار المدينة المنورة ط ٢ ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .
- المعجم الوسيط فى الإعراب ، صنفه د. نايف معروف ، راجعه د. مصطفى الجوزو ، دار النفائس ، بيروت ط ١ ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.
- الإيضاح للخطيب القزوينى ، تحقيق د. عبد الحميد هنداوى ، م. المختار ط ١ ، ١٤١٩ هـ / ١٩٩٩ م .